

1



د. أحمد خالد توفيق

قصة لا تنتهي

مقدمة

اسمها (عبير) ...

لم يكن لها نصيب من اسمها ... فهى تفتقر إلى الجمال الذى يوحى به الاسم .. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين ، باردة الأطراف .. ترتجف رعبًا من أى شىء وكل شىء ...

إنها حتى غير مثقفة .. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كى تكون بطلتنا .. أو بطلة أى شخص سوانا ..

هى لا تلعب التنس ، ولا تعرف السباحة ، ولا تقود سيارات (الرالى) ، وليست عضوًا فى فريق لمكافحة الجاسوسية ، أو مقاومة التهريب ..

لكن (عبير) ـ برغم ذلك ـ تملك أرقِ روح عرفتها فى حياتى .. تملك إحساسًا بالجمال ورفقًا بالكائنات .. وتملك مع كل هذا خيالاً يسع المحيط بكل ما فيه ...

لهذا أرى أن (عبير) هى ملكة جمال الأرواح ، إذا وجد لقب كهذا يومًا ما ..

ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة ... ستكون بطلتنا الدائمة .. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقًا إذا ما حاق بها مكروه ....

ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم .. ولأنها تختزن فى مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية ، وآلاف الأحداث التى خلقها إبداع الأدباء عبر العصور ..

لذلك وقع عليها الاختيار كى ترحل إلى (فانتازيا) ..

(فانتازيا) أرض الأحلام التى لا تنتهى ..

(فانتازيا) حيث كل شىء ممكن .. وكل حلم متاح ..

(فانتازيا) جنة عاشقى الخيال ....

ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير) .. سنضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى (فانتازيا) ..

وهناك سنتعلم كيف نحلم ...

إن صفير القطار يدوى ، والبخار يتصاعد حول قاطرته ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. إذن فلنسرع ..!..

لقد حان موعدنا مع الأحلام فى (فانتازيا) ..



الجزء الأول

هـى

مقدمة لا بد منها لنعرف كل شىء عن أبطالنا وعاداتهم ومشاكلهم قبل أن يرحلوا إلى (فانتازيا) ..

١ ـ اصبرى يا (عبير) !

كانت (عبير عبد الرحمن) إنسانة ملولاً ..

كلهم قالوا عنها نفس الشىء .. أمها .. شقيقتها .. الأستاذ (حمدى) .. (شهيرة) .. (غادة) ..

وحين يُجمع كل هؤلاء على شىء واحد ، يكون من العسير توقع أنهم قد أخطئو فى حكمهم .. ، و (عبير) نفسها تعرف ذلك ، ويثير ذهولها مدى ما وصلت إليه من ضيق خلق وسرعة ملل ..

وفى المدرسة .. فى الشارع .. فى البيت كانت ترى وجوهًا ترمقها فى شىء من الشفقة الممزوجة بحزم صارم .. وتسمعهم جميعًا يقولون :

ـ اصبرى يا (عبير) !

★ ★ ★

لم تكن تعترف لأحد بأنها كانت تغلق الحمام على نفسها ، وتذهب إلى المرآة الرخيصة المعلقة هناك ، والتى تناثرت على سطحها البرّاق تلك البقع السوداء القبيحة ، التى سقط طلاؤها من الخلف ..

وهناك تدنو من السطح اللامع تتأمل وجهها ..

تتأمل أبشع وأقسى منظر رأته فى حياتها ..

من الصعب عليها أن تصدق أن هذه العجفاء السمراء بارزة الوجنتين ، التى ترمقها من الناحية الأخرى هى (عبير) ..

كانت تدفع شعرها إلى أعلى .. تبتسم فى رقة .. تقطّب متظاهرة بالجدية .. ترسم فى عينيها الضيقتين نظرة حالمة ..

لكن النتيجة هى هى ...

لم تزدها هذه المحاولات سوى قبح على قبح ..

بالتأكيد هى لا تبدو كممثلات السينما الحسناوات ، وعلى كل حال هى لا تشبه (غادة) على الإطلاق ...

كيف ستعرف الحبّ يومًا ما ؟ .. وكيف ستتزوج ؟ ..

هى ليست مرعبة مثل الغيلان .. لكنها كانت بحاجة إلى أن ترى وجهًا أجمل وجسدًا أرشق .. معنوياتها تحتاج إلى هذا .. كانت تشعر بأنها تتضاءل ، وأنها تتقلص .. وخيل لها شبابها الغض أن هناك نوعًا من الجمال فى كل الناس سواها .. هى وحدها تعيش فى تعاسة .. تمقت الماضى وتخاف الغد ..

قالت لها أمها إنها ما زالت فى مرحلة التكوين ، وأن (خرّاط النساء) آت حتمًا ليزورها ويسبغ على وجهها مسحة الجمال ..

فى نفاد صبر هتفت :

- « إذن متى ؟ .. متى ؟ » .

قالت الأم فى حنان حازم :

- اصبرى يا (عبير) !

★ ★ ★

دارها كانت فى إحدى حوارى (غمرة) الضيقة ..

وكانت هناك دومًا بركة من الماء الآسن أمام الباب ، لا تدرى حقًا من أين تجىء هذه المياه الأبدية ، إذا لم يكن هناك مطر ولا صنبور ماء ولا بالوعة مكشوفة ؟ ..

ولا بد أن تجد الأطفال أشباه العراة يتشاجرون .. وقطًا أجرب يلتهم أمعاء دجاجة رمتها إحدى الجارات الشمطاوات أمام الباب ..

وتدلف إلى مدخل البيت الضيق حيث تفوح رائحة مقيتة .. لم تعرف مصدرها يومًا برغم أنها تشمها طيلة سبعة عشر عامًا هى عمرها ..

تصعد الدرجات المتآكلة إلى الطابق الثانى حيث تعيش ..

الدار ضيقة مكونة من حجرتين وصالة .. أثاثها عتيق رخيص ينم عن ذوق فظيع .. والجدران تم دهانها بالجير الأصفر .. وعلقت عليها تلكم اللوحات

الشنيعة التى يتصور الناس أنها فنّ .. تعرفون بالطبع تلك الصورة المقززة للطفلين اللذين هما من ذهب وفضة .. وتلك الصورة السخيفة للمرآة التى تقرب ثعبانًا من ثغرها .. ، تلك الصور الخالية من أى فنّ ويعلقها الناس دون أن يحبوها ..

ثم هناك قصاصات من المجلات الفنية ، تحمل صور ممثلات ومطربين .. و (بوستر) كبير لـ (وليد توفيق) ألصقته شقيقتها بالنشا على الجدار ....

وبصفة عامة لا يمكنك أن تجد فى هذا المنزل سريرًا لم تسقط مُلّته ، أو مقعدًا أرجله سليمة ، أو مفرشًا لم يتم ترقيعه ..

وكان المطبخ ضيقًا كالقبر ، به موقد غازى صغير .. (وقلتان) فى صينية ملأى بالماء .. وثلاجة صغيرة تلفت منذ دهور ..

فى الصالة جهاز (تليفزيون) ملوّن صغير اشترته أمها بالتقسيط من معاش الأب ، بعد أن بدأ دخل الابن يتحسن من معرض الأدوات الصحية الذى يعمل فيه ..

وفى هذا الجهاز عرفت (عبير) أن هناك عالمًا براقًا جميلاً لا يمت بصلة لواقعها الكئيب .. رأت أطفالاً لا يلوث الطين وجوههم ، وفتيانًا ليس فى أجسادهم طعنات مطواة قديمة ، وفتيات لم يكسُ الفقر كعوبهن بطبقة خشنة كالصنفرة ..

وكـانت ـ فى المسـاء ـ تجلـس مع أسـرتها تشـاهد المسلسل اليومى ، وتتسلىّ بمراقبة وجوههم التى تتـابع الصور الملونة ، فى نظرة خاوية غـير واعيـة .. لكنهـا تتابع دون كلل ..

تصـاعد الـدم إلـى رأسـها ، وتمنـت لـو تفـرّ مـن هـذا البيت الخانق ..

فقال لها الجميع :

ـ صبرًا يا (عبير) !

★ ★ ★

طالبة فى إحدى المدارس الثانوية الفنية هى ..

تدرك جيدًا أن المسـتقبل مسدود أمامهـا ، وأنهـا لـن تغـدو أبدًا مهندسة أو طبيبـة ـ والأدهـى ـ لن تكون أبدًا (باليرينا) كما تمنت منذ نعومة أظفارها ..

هاتـه الفراشـات الرقيقـات يثبـن حـول النـور .. لكـم تمنت لو صارت واحدة منهن !.. لكنهـا كـانت تـدرك أن هـذا مسـتحيل .. حتـى ولـو كـانت نحيلـة مثلهـن .. هـى لا تعرف الطريق الذى يسلكه المـرء كـى يصـير راقـص باليه .. لكنه بالتأكيد ليس طريقها ..

تدفـن أحزانهـا فـى مداعبـات سـمجة مـع أترابهـا ، وتختطـف مـن هـذه شريط (الكاسيت) الـذى أحضرتـه

معها .. ومن تلك صورة خطيبها ثم تخلد للهدوء إذ يدخل الأستاذ قاعة الدرس ..

ويبدأ الكلام .. الكلام المملّ الذى لا أول له ولا آخر ، عن ثـابت (بلانـك) ، والاستاتيكية ، وجنـد (كسـرى) الذين صبحهم الغطاريف أمام شاعر أعشى شيئًا ...

كانت عاجزة تمامًا عن وضع عقلها فيما تسمعه .. مخلصة حاولت .. وآسفة فشلت .. ولهذا رسبت مرتين فيما سبق .. ولربما صارت المرتان ثلاثًا ، لو أنها لم تستطع وضع السرج فوق صهوة جواد أحلامها ..

كانت تمقت هذه الجدران المقيتة الرطبة ولـم تستطع قط أن تشعر أن لها صديقة حقيقية ، مجرد وجوه فتيات مألوفة تراها كل يوم ، ولا تحمل لها أيـة مـودة .. ولو أن صاروخًا ذا رأس نووى هوى فوق هذا الفصل ونجت هى ، لما شعرت بأى حزن على زميلاتها ، ولا افتقدت واحدة منهن ..

كـان أسـاتذتها يؤمنون بـأن لديهـا قدرًا كبـيرًا مـن الذكـاء .. فقط لـو أنهـا أقل مللاً وأقل شـرودًا وأكـثر طموحًا وأكثر اهتمامًا ..

ألن ينتهى هذا السجن أبدًا ؟ ..

عندئذ تقول لها المعلمة وهى تنظف السبّورة :

ـ اصبرى يا (عبير) !

★ ★ ★

رحلة البيت إلى المدرسة .. رحلة المدرسة إلى البيت .. لقد صار هذا قدرًا محتومًا .. كهجرة الطيور .. شيئًا من نواميس الطبيعة لا يتغير .. قانونًا أقوى من قوانين (نيوتن) ذاتها ...

وفى البيت ترتدى جلباب النوم ، وتجلس مع أسرتها الصغيرة ، المكونة من أمها وأختيها وأخيها الطفل ، يلتهمون الأرز والخضر .. الخضر بلا لحم طبعًا عدا يوم الخميس .. ، أما عن أخيها الأكبر فالطعام ينتظره عند عودته منهمكًا محطمًا فى المساء ، من متجر الأدوات الصحية .. ، بعد الغذاء يأتى دور كوب الشاى ، ترشفه فى النافذة الضيقة ـ التى لا تطلّ على أى شىء فى الواقع ـ مع أختها .. ثم تدخل الفراش الضيق الذى يصدر صريرًا ..

وتمدّ يدها الناحلة إلى رفّين من الخشب ، قام أخوها بتثبيتهما فى الجدار ، وربطهما معًا بالحبال ..

هذان الرفان يحويان كل ما كانت تريده من هذا العالم .. عشرات الكتب المهترئة المزدحمة فوق الرفين بانتظارها ...

من أجل هذه اللحظة تنتظر اليوم بأكمله ..
من أجل لحظة ما بعد الظهيرة ، تتحمل ساعات الدراسة .. ومن أجل لحظة المساء تتحمل ساعات الخواء والوحدة بعد الغروب ..
بين صفحات هذه الكتب ترعرعت أحلامها ونمت ..
كتب ! .. عشرات الكتب !..
صحيح أنها جميعًا روايات .. ولكن ما المشكلة فى ذلك ؟ .. هى تقرأ كى تستمتع ، ولا تقرأ كى تؤدى واجبًا وطنيًا .. لقد قرأت (للعقاد) ذات مرة يقول : « إن الجسم يغذيه ما يشتهيه .. فاقرأ ما تحب تستفد .. » .
و (عبير) كانت تحب الروايات .. وكانت تؤمن بأن الروايات تغذى جسدها وعقلها ، فلم تجرؤ يومًا على أن تعتبر الرويات أقل منزلة من الكتب الفلسفية والسياسية مثلاً ..
كانت قد قرأت جيشًا من المؤلفات لكتّاب عرب وأجانب ..
عرفت الكثير عن عالمها والعالم الخارجى ، وسافرت إلى الصين وإلى جزر الكاريبى ، وإلى وديان القمر عبر صفحات هذه المخترعات الساحرة ، التى يسمونها كتبًا ..
تنفست مع غادة الكاميليا .. وانتابها طموح (حميدة) المجنون الشبيه بطموح مدام (بوفارى) .. وعاشت



عرفت الكثير عن عالمها والعالم الخارجى ، وسافرت إلى الصين وإلى
جزر الكاريبى ، وإلى وديان القمر ..

فى جمهورية فرحات .. وتسللت ليلاً إلى قصور النبلاء مع (أرسين لوبين) .. وكادت الديناصورات تلتهمها وهى تجتاز الأرض التى غفل عنها الزمن ...

لكم من حيوات ساحرة أضيفت إلى عمرها ..!

لم تستطع قط أن تجيب جهاز (التليفزيون) ، لأن الروايات كانت تمنحها مطلق الحرية فى الحلم .. وكانت إذ تقرأ سطور الرواية ، تجد نفسها فى عالم ملموس كامل التفاصيل .. بل ومسموع كذلك ، حتى أن قراءتها لكلمة (النجدة !) مكتوبة ، كانت تجعلها تتخيل أنها تسمعها بذات الحدّة والهلع التى يمكنها سماعها فى فيلم مصوَّر ..

كانت عاجزة تمامًا عن تمييز الغث من الجيد .. وكانت تحسب أبطال القصة موجودين منذ الأزل ، يتصرفون بكامل إرادتهم ..

فإذا حدث خلل فى سياق القصة أو نبَتْ عن المنطق ، حسبت أن هذا بسبب أن الأبطال يتصرفون بغباء لا أكثر !

لهذا كانت تقضى كل ساعات عدم القراءة تنتظر ـ فى شوق جائع ـ ساعات القراءة ..

وكان كل من يراها فى حالة التوتر هذه ينصحها :

ـ اصبرى يا (عبير) !

★ ★ ★

يأتى هنا دور الجانب العاطفى فى حياة (عبير) ..
وكما قلنا هى فتاة ملأى بالحيوية ، مفعمة بالرومانسية ..
لكن هذه الرومانسية لم تكن تخصّ أحدًا بعينه .. ساعدها على هذا أن الرجال الموجودين فى عالمها ، لم يكونوا سوى حفنة من الأوغاد ، الذين يتبادلون الطعنات بمطاوى (قرن الغزال) عند أدنى استفزاز لهم .. وكلهم ثقيلو الظل معدومو الخيال ..
وبالتأكيد لم يكن أحدهم وسيمًا مثل القديس (سيمون تمبلر) ، أو حويطا مثل (بيرى ميسون) ، أو لغزًا دائمًا مثل (أدهم صبرى) ..
لهذا تركزت رومانسيتها على لا أحد ..
كانت تحب الليل ، وعبير أنسام الصيف ، وارتجاف القطط الصغيرة فى يدها .. وتمزج كل هذا بصوت (عبد الحليم حافظ) الملىء بأشجانِ المراهقة منذ الأزل ... ، وكانت تخلق من كل هذا كيانًا عملاقًا لا شكل له ولا حدود .. وتحبه ...
وحين كانت تتساءل سرًّا ـ وهى تتابع الدرس فى الفصل ـ عن اليوم والطريقة التى تستحوذ بها على ذلك الكائن ، كانت تتنهد وتهمس لنفسها :
ـ اصبرى يا (عبير) !...

★ ★ ★

٢ـ مشكلة دوائر متكاملة ...

والآن نحرك عقارب ساعتنا بضع أيام إلى الوراء .. فى شقة أنيقة بـ (العجوزة) ، يقف (شـريف) يتأمل خارطة الدوائر المتكاملة المعلقة على الجدار ، والتى امتلأت بالأسهم الحمراء التى تمّ محوها بأخرى زرقاء ..

ثمة شىء مـا خطأ ، لكنـه لا يستطيع تركيز ذهنـه ، خاصة والحاجة إلى التبغ تمزق أعصابـه .. لكنـه أقسم منذ أربعة أيام ، علـى ألا يلمس لفافـة تبـغ أخـرى .. وها هو ذا اليوم الخامس يبدأ ، والحاجة الملحة تتزايد ..

تناول بعض أقراص النعناع ، وجرع بعدهـا كأسًا من المـاء البارد ؛ ليتلذذ بذلك الشعور الحارق المنعش فى حلقه ..

ثمة شىء ما خطأ ...

★ ★ ★

اسمه (شريف إبراهيم) .. فـى العقد الرابـع مـن عمـره .. وسيم كسيارة جديدة براقـة لـم تسـر علـى الأرض مترًا واحدًا .. فارع القامة ..

يمكنـك ـ دون جهد ـ أن تحسبه ممثلاً أو عـارض أزيـاء .. ولا تجـرؤ علـى تخيل أن هـذا الـرأس الجميـل يحوى مخ عبقرى ..

العباقرة ـ كما علمتنا القصص المصورة ـ لا علاقة بينهم وبين الجمال ..وصلع الرأس علامة أكيدة على اكتنازه بالأفكار ..

لكن (شريف) حطّم القاعدة منذ زمن ..

منذ طفولته والجميع يؤكدون أن هذا الطفل (معتوه لكن فيه شيئًا ما لا يمكن وصفه) .. كان أبوه يقسم على هذا ، بينما (شريف) يهشم المنبه .. يكسر المذياع .. يفك المروحة ..

عندئذ كان الأب يؤكد فى فخر :

ـ التخريب علامة على العبقرية لدى الطفل !.. هذا ما يؤكده د . (سبوك)(*) فى كتابه .. لقد قرأت كل سطر فيه !

وتمرّ الأيام ...

وككل مواليد برج (الجوزاء) ، جرّب (شريف) كل شىء .. جرّب كتابة الشعر ، والسفر بطريقة (الأوتوستوب) ، وتعلم المصارعة الحرّة ، لكنه ـ ككل مواليد برج (الجوزاء) ـ لم يبرع فى شىء ...

(*) بنيامين سبوك : طبيب أطفال أمريكى له كتب عدّة حول تربية الطفل أشهرها (دستور الأم) .

وفى السادسة عشرة من عمره ، التحق بالجامعة الأمريكية ليدرس بها ذلك العلم الغامض الكهنوتى (الكمبيوتر) ..

وكانت هذه هى عصا الساحر التى لمسته ، لتنقلب حياته رأسًا على عقب .. كفّ عن الأكل .. عن الشراب .. عن النوم .. غرق فى لجة الإدمان اللذيذ لهذا الاختراع الرهيب .. لقد وجد حبّه الضائع !..

وسافر إلى الولايات المتحدة ؛ ليتعمق أكثر فى دراسة (الكمبيوتر) ، وأثار ذهول من علموه هناك .. لأنه دنا منهم .. ثم صار مثلهم .. ثم سبقهم فى مجالات عديدة .. !

وحين عاد إلى مصر أخيرًا ، كانت أبواب العمل كلها مفتوحة أمامه ، واستطاع أن يلتحق بإحدى الشركات الأمريكية لأعمال الحاسب الآلى .. وكان راتبه مجزيًا ولم يلق أية مصاعب فى الزواج من (إيناس) زميلته القديمة فى الجامعة .. كما أنه لم يلق أية مصاعب فى الطلاق منها بعد عامين ، لأنها لم تعد تتحمل أكثر :

ـ أنت إنسان أنانى ، غير مؤهل لتكون زوجًا أو أبًا أو حتى بواب عمارة .. أنت فاقد الإحساس بالآخرين .. غارق فى عالمك ليلًا ونهارًا .. فلم يعد لديك متسع لإنسانة معتوهة ، ظنت أنها قادرة على أن تصنع معك أسرة !

وحين رحلت ـ أخيرًا ـ ظل خمس ساعات أمام شاشة (الكمبيوتر) يحاول تغيير الحماية التى ابتكرها للقرص المرن .. وحين نجح أخيرًا ؛ أعدّ لنفسه قدحًا من القهوة وجلس يرشفه أمام الشاشة .. وغمغم :

ـ « حسن .. أنا الآن وحيد . أخيرًا أنا وحيد ! » .

لن يطالبه أحد بعد اليوم بزيارة الأقارب ، أو شراء البقالة ، أو دفع فاتورة الكهرباء ، أو اصطحابه إلى طبيب الأسنان ، أو ...

هو اليوم وحيد تمامًا .. ولئن هلك جوعًا أو صعقته الكهرباء ، أو انفجر فيه السخان ، فلن يعرف أحد بذلك ، سوى حين يشمّ الجيران رائحة عفن خارجة من شقته .. عندئذ ينتقل إلى المكان المقدم (فلان) والعقيد (فلان) ليهشموا باب الشقة ، ويخرجوا جثته ! ..

حمدًا لله العلى القدير !

★ ★ ★

فى البدء كان خاطرًا .. ثم غدا احتمالاً ..

وعلى الورق استطاع أن يخطّ عشرات (الاسكتشات) لفكرته المجنونة ، التى صارت تطارده ليلاً ونهارًا .. وتحرمه متعة النوم ..

لم لا يقوم بتصوير الأحلام ؟! ..

لم يجرؤ على أن يصارح أحدًا بذلك ، لكنه تبنى الفكرة .. فهو يعلم أنه قادر على تنفيذها ..

وكان أحد أصدقائه قد صار أستاذًا لعلم وظائف الأعضاء بجامعة (...) ، فذهب إليه يستشيره .. إن الأحلام هى مجرد نبضات كهربية خافتة تعبر أجواز المخ من خلية إلى أخرى .. فلم لا يمكن التقاطها وترجمتها ؟..

إن الفكرة ذاتها حلم كبير لكن يمكن تحقيقه ..

حدثه الطبيب عن المشعوذ البريطانى ، الذى كان يتخيل صورة ما ، ويمسك بعدسة الكاميرا حتى إذا ما أحسّ بأن الصورة واضحة ؛ ضغط الزناد ..

عندئذ كانت خيالاته تنطبع على الفيلم ..

قال لصديقه وهو يجذب شعيرات سالفه كعادته حين يفكر :

ـ ربما لم يكن نصابًا .. لكن ـ حتى لو صحّ هذا ـ فطريقته تعتمد على قدرات نفسية خارقة غير متاحة للجميع .. وأنا أبحث عن طريقة (شعبية) تناسب كل إنسان ..

ـ إذن عليك أن تدرس جهاز رسم المخ الكهربى بعناية .. فهو يلتقط النبضات الكهربية الخافتة ، ويحيلها إلى نبضات يمكن رسمها على الورق ..

ـ أدرسه .. ؟ ..

بل سأفعل ما هو أكثر .. سأشترى واحدًا لنفسى ..!

★ ★ ★

كان هناك الكثير من الفشل ..

فهو لم يكن خبيرًا بالإلكترونات .. إنه أستاذ فى برمجة الحاسب الآلى ، لكن هذا يختلف تمامًا عن دراسة دوائره وتوصيلاته .. ذلك العلم المسمى (هارد ـ وير) ..

إن الفارق ما بين علم البرمجة (سوفت ـ وير) وعلم الـ (هارد ـ وير) هو ذات الفارق ما بين دارسة علم النفس ودراسة تشريح المخ ..

لقد اقتضى منه هذا جهدًا لا يُوصف ، وأقداحًا عديدة من القهوة ..

لكن جزاء العرق مجز دائمًا ...

وحمد الله كثيرًا لأن زوجته قد تركته .. فما كانت لتتحمل كل هذا التركيز المفرط ، ودخان التبغ فى كل مكان .. كانت ستطالبه بأشياء ، وأشياء ، وهو يفتقر إلى أية سعة نفسية فى الآونة الحالية ..

★ ★ ★

فى البدء قام بتحويل عدد من الصور الفوتوغرافية إلى صور على شاشة (الكمبيوتر) ، صالحة لدخول

ذاكرته .. إن هذا سهل .. ويعتمد على استخدام جهاز يُسمّى (ديجيتايزر) .. وهو جهاز متاح للجميع ..

لكن (شريف) قام بدراسة عمل هذا الجهاز بعناية ؛ ليعرف كيف تتحول بضع نبضات كهربية إلى صورة على شاشة (الكمبيوتر) ..

ثم إنه عكف على دراسة جهاز رسّام المخ الكهربى ؛ ليعرف كيف يحوّل الأفكار المجردة إلى نبضات كهربية ..

وبمساعدة مهندس إلكترونيات ، تمكن من تصنيع دائرة توفيقية ، قادرة على نقل نبضات رسام المخ الكهربى إلى جهاز (الديجيتايزر) ، مع تغيير دوائر هذا الأخير ، لتنقل إلى (الكمبيوتر) بيانات رقمية تسمح له برسم صورة ..

كم من محاولات فاشلة غاص فيها !..

وكم من إحباطات عاشها ..!

إن ترشيح نبضات المخ الخاصة بالتخيل ، كان عملاً مستحيلاً ، لكنه لاحظ أن لها ترددًا معينًا يمكن قياسه واستبعاد ما دونه وما فوقه ، وبالتالى يتم ترشيحه وتوصيل اللازم إلى (الكمبيوتر) ..

ثم كان على (الكمبيوتر) أن يعيد تنسيق هذه النبضات على شكل صورة محددة المعالم .. بل ومتحركة ...

وفى اليوم الموعود ؛ جلس (شريف) على مقعد مريح ، وربط الأقطاب على دماغه .. ثم ضغط زرّ جهاز رسم المخ ، وشرع يركز ذهنه فى صورة ثابتة محددة .. هذه الصورة التى اختارها هى وجه أمه يتأرجح بين العبوس والبشاشة ..

وأمام عينيه المذهولتين رأى الصورة تتشكل ببطء على شاشة (الكمبيوتر) .. !

مذبذبة نعم .. مليئة بالخدوش حقًّا .. لم تكد تظهر حتى بدأت تتلاشى لأن عقله كفّ عن التركيز حين شاهد الشاشة !

لكنه فعلها !.. فعلها ..!

نزع الأقطاب ، وشرع يرقص فى أرجاء الغرفة دائسًا نباتات الظل .. مبعثرًا الأكواب وراميًا منفضة التبغ على الأرض ..

لقد فعلها ! ..

★ ★ ★

وتمرّ الأيام ...

ويزداد (شريف) إتقانًا لعمله ...

قام بتوصيل جهاز (الفيديو كاسيت) إلى (الكمبيوتر) ليسجل ما يراه ..

ثم بدأ يركز ذهنه لمدة دقائق ..

فى النهاية كان لديه شريط مدته خمس دقائق ، يصوّر وحشًا أسطوريًا قد برز من تحت الماء ليلتهم سفينة ..

وفى الأيام التالية شرع يخلق أفلامًا كاملة لها حوار وأحداث .. أفلامًا بلا ممثلين ولا مخرجين ولا مصورين ..

أفلامًا ولدت من خلايا مخه هو وحده ..!

أحيانًا ـ وهذا حق ـ كانت الصورة تهتزّ .. وكان وجه البطل يتغير عدة مرات فى نفس الدقيقة .. وكانت حواف المشهد مهزوزة غير واضحة .. لكن المشكلة هى مشكلة تركيز ..

كلما ازداد التركيز ، ازداد وضوح المشهد .. وكلما قلّ تشتّتت الصورة وضاعت معالمها ..

ـ « عزيزى (شريف) ! » ـ قال لنفسه ـ « أنت عبقرى .. يمكنك أن تنتج من الأفلام السينمائية ما يملأ مكتبة (فيديو) دون أن يكلفك الإنتاج مليمًا واحدًا ! » .

لقد بدأ يبيع الخيال .. فوجده مربحًا .. ولكن ..

★ ★ ★

لكن العباقرة لا يشبعون ..

و (شريف) كان عبقريًا ـ على الأقل بالنسبة لنا ـ لهذا لم يرض قطّ عما وصل إليه ..



فى النهاية كان لديه شريط مدته خمس دقائق ، يصور وحشًا أسطوريًا قد برز من تحت الماء ليلتهم سفينة ..

إن اختراعه غريب حقًا ومسلٍ .. لكنــه غير ذى نفع اقتصادى ..

من الصعب أن يجد التركيز الكافى لعمل أفلام طويلة روائية ، ولو أنك حاولت أن تتخيل لبضـع دقـائق منظر ساحة قتال يتعارك فيها جيشان ، لأدركت تعقيد الأمـر .. من المستحيل تقريبًا أن تحافظ على التتابع فى خيالك .. مَن ضرب مَن ؟ وأين ذهب سلاح هذا ؟. ومتـى سقط هذا .؟ إلخ ..

هذه الأشياء تكون رمزيــة عنـد التخيـل ، لكنهـا على الشاشة تغدو هيستيريا حقيقيـة ، والمبـانى تتحـول إلـى بقعة من اللون الرمادى لأنك ـ بالطبع ـ غير قادر علـى تخيل كل نافذة وكل جدار فى المبنى .

لهذا أيقن (شــريف) أن الاسـتفادة مـن اختراعـه عسيرة جدًا .. ربما يحتـاج الأمـر إلـى كـاهن مـن كهنـة (زن) اليابانيين الذين لا يفعلون شيئًا فى حياتهم سوى التركيز ..

وخطرت له فكرة أخرى ..

لِمَ لا يعكس عمل الجهاز ؟ ..

لِمَ لا تسرى النبضات من (الكمبيوتر) إلى المخ ؟ ..

ألن يصنع وقتها آلة أحلام حقيقية ؟ ..

شرع يجرب ويجرب .. قام بعكس الدوائر بالكـامل .. ثم وضع صورة على شاشة (الكمبيوتر) .. ولكن .. لا ... إن رؤيته للصورة قد تؤدى بـه إلـى أن يتخيلها تلقائيًا دون معونة الجهاز ..

لذا انتقى عشر صور فوتوغرافية تمثل قطًا .. بيتًا .. (مادونا) .. (شوبير) .. إلخ ... وأدخلهـا إلـى ذاكـرة (الكمبيوتر) مستعملاً جهاز (الديجيتايزر) إيـاه .. ثـم كتب برنامجًا قصيرًا يجعل (الكمبيوتر) ينتخب صـورة عشـوائية ويرسلها إليـه .. وعملـه هـو أن يعرف أيــة صورة هى ..

وضـع الأقطـاب علـى رأسـه .. أغمـض عينيـه وشـرع ينتظر ..

أخيرًا رأى بعين الخيال ـ وبوضوح تام ـ صورة سيارة تندفع على طريق صحرواى مقفر .. إن هـذا لرائـع ! .. المشكلة الوحيدة هنا هى أن هذه الصورة لم توضع على (الكمبيوتر) أصلاً ! .. لقد كـانت صـورة (شـوبير) هـى الظاهرة الآن على شاشة الجهاز .. فالسيارة إذن مجـرد صورة عابرة زارت ذهنه بطريق الصدفة !

ومعنى هذا أن المحاولة فشلت ..

كان هنـاك شىء ما خطأ .. ولكن ما هو ؟! ..

★ ★ ★

٣ـ لقاء غير منتظر ...

جلس (شريف) مع صديق عمره (صفوت) ، فى شقة هذا الأخير يتحدثان .. وكان (شريف) يحبّ (صفوت) كما هو .. بمعنى أنه لا يعبأ كثيرًا بكونه نصابًا .. مدعيًا .. ضيق الأفق .. تافهًا ..!

كان (صفوت) يريح جسده البدين المترهل على الأريكة ، ويلتهم حبيبات الترمس التى قدمتها لهما زوجته .. ويقول :

ـ أنت هو أنت يا (شريف) .. الراكض الأبدى وراء الأوهام .

ـ ما دمت أؤكد لك أن هذا ممكن .

قالها (شريف) ومدّ يده إلى جيبه ليخرج علبة التبغ .. ثم تذكر أنها غير موجودة ، وأن الموجودة مكانها هى أقراص النعناع إياها .. تناول قرصًا ورماه فى فمه وأردف :

ـ إن الاختراع يعمل .. أنا واثق من كونه يعمل .. لكن هناك عدة مشاكل لا مفرّ من مواجهتها .، فصراع الأفكار الداخلى لدى أمثالنا ، يجعل استجابة المخّ للإيحاء شبه معدومة .. إن من يمرّ بهذه التجربة لا بد أن يتمتع بمواصفات معينة ...

وفتح أصابع يده اليسرى ليعدّ عليها بسبابته اليمنى ..

أولاً : يجب أن يكون شخصًا ضعيف الإرادة سهل الإيحاء إليه ..

ثانيًا : يجب أن يكون جاهلاً بالعلوم تمامًا ..

ثالثًا : يجب أن يكون واسع الاطلاع فى الأدب ..

رابعًا : يجب أن يكون رومانسى النزعة .. وأن يكون واسع الخيال .. وبعبارة أخرى يجب أن يكون امرأة ...

خامسًا : يجب أن يقبل وضع هذه الأقطاب المرعبة على جمجمته ..

ضحك (صفوت) فتناثر الترمس الممضوغ من فمه .. وقال :

- أما هذا فلا .. لن أقبل أن أرتدى طاقية المخابيل هذه ، ولو دفعت لى وزنى ذهبًا ..

نظر له (شريف) فى مقت ..

من الصعب عليه أن يصدق أن هذا الخنزير المترهل ، كان هو الآخر مهندس (كمبيوتر) .. إن (الكمبيوتر) - على غرار الشعر - يحرق الروح بنيران القلق .. ولا يمكن للشعر و (الكمبيوتر) أن يسكنا فى جسد بدين راض عن نفسه إلى هذا الحدّ .. بل هما لا يستطيعان أساسًا عبور طبقات الدهن والشحم ..

فى حياته لم يعترف قط بشاعر بدين .. ولم يثق قط فى خبرات مبرمج (كمبيوتر) مكتنز .. والاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها هنا هو (صلاح جاهين) عبقرى الشعر .. و (صفوت) موهبة (الكمبيوتر) التى لم يختلف عليها اثنان ...

لكن (صفوت) كان قصير الأنفاس قريب الطموح .. آثر الطريق السهل ، وافتتح مكتبًا صغيرًا لـ (الكمبيوتر) هو عبارة عن شقة مفروشة ضيقة فى حىّ شعبى .. تعرفون بالطبع هذه المكاتب التى تملأ المدينة ، ويكون اسمها مجرد تباديل وتوافيق بين حروف (الآى) و (السى) ، مثل (آى سى آى) و (سى آى آى) و (سى سى آى) إلخ ..

مع لافتة تؤكد أن المكتب يضم نخبة من علماء (الكمبيوتر) و .. و .. ثم فى الداخل لا تجد سوى فتاة شاحبة مصابة بالأنيميا ، ترتدى شبشبًا ، وثلاثة أجهزة (كمبيوتر) ، متهالكة ، يلعب عليها الصبية ألعاب (الفيديو) السخيفة ..

كان هذا هو المجال الذى ارتاح إليه (صفوت) ، ووجد ذاته فيه فالأمر لا يكلفه سوى سرقة البرامج المباعة فى السوق ، ونسخها على شرائط (كاسيت) تباع كالكعك الساخن ...

كان هذا هو (صفوت) ..

لكن (شريف) كان واقعيًا .. وكان يعرف أنه لو انتظر قدومٍ إنسان بلا عيوب كي يصادقه ، فلسوف ينتظر طويلا ...

قال (صفوت) :

- ثم .. حتى لو نجح اختراعك هذا .. فما نفعه ؟

- ألا تجد شيئًا مفيدًا في جهاز يصنع الأحلام لمن عجزوا عنها ؟

- (الأفيون) يقدم ذات الشيء .. ولا أحد يعتبره مفيدًا ..

- (الأفيون) يسبب الإدمان .. وهو بكل المعايير خطوة للوراء ، أما هذا الجهاز فخطوة إلى الأمام .. بل خطوات ..

- تريد بيع أحلام اليقظة وتعتبرها خطوة للأمام ؟!

صعد الدم إلى رأس (شريف) وتحفز في جلسته .

- لن تكون أحلام يقظة .. بل هي نتاج خبرات المرء وثقافته ، يتم صهرها والتفاعل معها .. تخيل لو أنك عالم رياضيات ، ورأيت حلمًا يناقشك فيه (فيثاغورس) و (الخوارزمي) و (نيوتن) و (أينشتين) .. !

- وهل سيكونون هم المتكلمين حقًا ؟

- بل سيكون عقلك يحاور نفسه .. وهذه المحاورة ستنجب أفكارًا أرقى وأعمق بكثير مما حسبت نفسك قادرًا

على إيجاده .. وإذا تم تسجيل كل شىء على شريط (فيديو) ، نكون قد قدّمنا للبشرية أعظم اختراع تثقيفى بعد التليفزيون ..

نظر (صفوت) إلى (شريف) بضع ثوان .. ثم غمغم :

- أكره أن أراك فاشلاً يا (شريف) .. لهذا - أرجوك - كن حذرًا ..!

★ ★ ★

وفى ذلك الصباح المشمس ، غادر (شريف) صدفة السلحفاة التى عاش بها شهورًا .. سار فى الطرقات قاصدًا مكتب (الكمبيوتر) - ونقولها تجاوزًا - الخاص بصديقه اللعين (صفوت) ..

لم تكن الشمس قد رأت جلده منذ فترة طويلة .. لا شىء سوى الضوء الصناعى ، والأحرف الخضراء على (المونيتور) ، ودخان التبغ ، وأقداح القهوة .. أقداح القهوة التى - حتمًا - حولت دمه إلى قهوة ساخنة تجرى فيها بعض الكريات الحمراء ...

لهذا - وله الحق - شعر بالانبهار والرضا عن الكون .. وشرع يتأمل الناس فى نهم ..

ثم رأى اللافتة النيون مكتوبًا عليها : (آى . سى . سى) للكمبيوتر .. خدمات - استشارات - ألعاب - تأجير - خبراء متخصصون .. هذا هو العنوان إذن ...

اجتاز المدخل الرطب حيث تتراصّ الدراجات مربوطة بجنازير إلى ماسورة مياه صدئة أفقية ..

وقبل أن يدخل الباب ، سمع الصوت المميز إياه ..

بوم ! .. بوم .. ـ! .. دززززز ! .. كليك ! .. دززززز ! .. كليك !

هذا الصوت المميز لألعاب (الكمبيوتر) ، التى يسمونها (أركيد) .. وهى ألعاب قائمة كلها على (تحاش واضرب) .. هناك دائمًا أشياء تحاول أن تصطدم بك (ولتكن سفن فضاء ، أو شهبًا ، أو زهورًا ، أو محاربى فايكنج) ، وأشياء يجب أن تطلق عليها النار ، ضاغطًا ذلك الزرّ الأحمر فى عصا اللعب .. عندئذ تنفجر هذه الأشياء (بوم !) أو تمنحك مزية ما .. المهم أن كل هذه الألعاب سواء ..

ومن الغريب أن (شريف) كتب مثل هذه الألعاب مرارًا .. لكنه ظل عاجزًا عن إجادة لعب حتى تلك الألعاب التى خلقها بنفسه !

كان هناك عشرة فتيان ملتفين حول ثلاثة أجهزة (كمبيوتر) .. وكلهم من تلك السن التى تدل على أنهم فى المرحلة الإعدادية .. وكانت سمات الإدمان والاستغراق بادية عليهم ، وهم يتمايلون بأجسادهم أمام الشاشة ،

محاولين زيادة فعالية عصا التحكم .. كأنما أجسادهم هى نفسها مركبة فضاء ، من التى يرونها على الشاشة ..

كانوا يقسمون بـ (عهد الله) وينادون بعضهم بـ (يا كابتن) ، كديدن الصبية فى هذه السن ..

بززز !.. كلاش !.. بونج !.. بام !..

وسط هذه الضوضاء اجتاز (شريف) طريقه باحثًا عن (صفوت) .. إن دوران المنظر الخلفى (السكرول) ، يبدو متقطعًا فى هذه اللعبة التى يراها على اليمين .. وهذا خطأ فادح من صناع اللعبة .. هكذا فكر وهو يرمق الشاشات بنصف عين ..

وعلى مكتب متهالك فى ركن القاعة ، جلست فتاة ناحلة سمراء ، تقرأ فى انهماك كتابًا ما .. وأمامها كرّاسة دونت بها أسماء اللاعبين ، وميعاد إنهاء كل دور ..

دنا منها فأحست بوجوده .. قالت دون أن ترفع عينيها :

ـ لا توجد أجهزة شاغرة .. ميعادك بعد ساعة من الآن !

إذن فهذه الملعونة تحسبك (كابتن) أنت الآخر !! ..

إلى رأسه صعد الدم ، وأوشك أن يصارحها برأيه فيها ، لكنها رفعت عينيها .. رأت أمامها أوسم رجل رأته فى حياتها ، وعرفت أنها أهانته دون قصد ...

شاعت ابتسامة مشرقة على وجهها ، وهبّت تعتذر .. فقال :

- كنت أبحث عن المهندس (صفوت) و ....
- هو آت حالا .. تفضل بالجلوس ..
جلس فى حرج ، وأعاد ربط رباط عنقه .. مهذبة هى .. ويوجد شىء مريح فى وجهها .. ، نظر إلى الكتاب الذى كانت تقرؤه ، متوقعًا أنه لن يكون أكثر من كتاب عن الأبراج ، أو رسائل الحب ، وهى نوعية الكتب التى تقرؤها فتاة من نوعيتها .. ولكن .. كان الكتاب مجموعة قصص لـ (ويليام فوكنر) ..!
غريب هذا !.. هو نفسه لم يقرأ سطرًا لـ (فوكنر) برغم أنه كان فى (أمريكا) ، ويعرف أهمية هذا الأديب وتعقيد كتاباته ..
- هل تسمحين لى ؟
ومدّ يده مستأذنًا فناولته الكتاب ..
كتاب مهترئ يوحى بأن صاحبه قد افترسه افتراسًا ..
من هى هذه الفتاة ؟.. هل هى تعمل هنا ؟..
وبدأ يحاورها محاولاً معرفة شىء عنها ...
- اسمى (عبير) .. (عبير عبد الرحمن) .. أقطن قريبًا من هنا .. حاصلةعلى دبلوم فنى منذ أيام .. بالطبع لم أجد عملاً ولن أجد .. ثم عرفت أن (الباشمهندس) يبحث عن فتاة ترعى هذا المكتب .

ـ وما هى طبيعـة عملـك ؟ .. هـل تعرفيـن شيئًا عن (الكمبيوتر) ؟ ضحكت فى طلاقـة (وإن ظلـت محتفظـة بحيائها) وقالت :

ـ لا أعرف عنه حرفًا .. كنت بحاجة للمرتب ..

ـ وما هو مرتبك ؟

احمرّ وجهها هنيهة .. ثم قالت :

ـ خمسون جنيهًا !

خمسـون جنيهـا ! .. المبلـغ الـذى تنفقـه أنـت علـى الغداء فقط يوميًا فى ذلك المطعم اللعين !.. لـم يستطع أن يصدق أن هناك أناسًا فقراء إلى هذا الحد ، هو الذى عاش فى سعة منذ وُلد .. لو عرفت هذه الفتاة (حقيقـة) راتبك لأغشـى عليهـا .. أو أصابهـا جنـون ذهولـى إذن فلتصمت ولا تعلّق ...

ـ ومتى تعلمت (الكمبيوتر) ؟

ـ قلت لك إنى لا أفقه حرفًا .. فقـط علمنـى (الباشـمهندس) كيف أنتقى شريط (كاسيت) ، وأضعـه فـى (الكاسيت) ، ثم أنقل برنامج (الكمبيوتر) إلى الجهاز .. وأبدأ اللعبـة .. ثم أطفئ الجهاز بعدها ..

ـ إذن لا تستعملون الأقراص ؟

نظرت له فى غباء .. ولم تفهم ..

- إن القرص - مثل شريط (الكاسيت) - وسيط تخزين ، لكنه أكثر سعة وسرعة ...

ثم إنه مطّ شفتيه فى اشمئزاز :

- هذه هى كل علاقتكم (بالكمبيوتر) ؟ .. اللعب ..

- نعم ..

- يصعب علىّ أن أرى هذا الجهاز العبقرى يُهان إلى هذا الحدّ كأنك جئت بـ (بيتهوفن) وطلبت منه أن يعزف فى الأفراح .. أو جئت ببطل العالم فى رفع الأثقال ، وجعلته حمّالاً فى (رمسيس) ..

ابتسمت للتشبيه ، وأيقن هو أنها تفهمه .. الفتاة التى تقرأ (فوكنر) لابد أن تفهم كلام (شريف) ..

وهنا تعالى صوت قرعات متكررة ، فهرعت الفتاة توبخ الصبية ، بأنه ممنوع استعمال المسطرة بدلاً من الزر الأحمر ..

دززززز ! .. بوم ! .. كليك ! .. بانج بانج ! .. دززززز .. !

وبينما هو غارق فى هذه الضوضاء الإلكترونية ؛ سمع صوت (صفوت) يرحّب به ...

- أخيرًا تنازل الكاهن الأعظم ، وجاء يزور تلاميذه (الأرزقية) !

ودعاه فى حرارة كى يصحبه إلى غرفة أخرى ، فتح بابها بالمفتاح ..

غرفة ضيقة بها جهاز (كمبيوتر) شخصى على مكتب صغير .. وطابعة .. وحزمة من الأقراص المرنة ..

- هذه هى صومعتى .. آخر علاقة لى (بالكمبيوتر) كعلم .. هيه ! ..

أراهن على أنك لم تحب كل ما رأيته ..

جلس (شريف) على مقعد جلدى ، وغمغم :

- أرجو إعفائى من ذكر رأيى فى الأمر ككل ..

ثم أشار إلى الباب .. وتساءل :

- هذه الفتاة .. ما قصتها ؟

- مجرد فتاة بائسة تعانى الفقر والبطالة .. وقد تدخّل كرمى الطبيعى ليجعلنى أتيح لها فرصة الكسب ..

كسب أيها الوغد !؟.. كسب خمسين جنيهًا عليها أن تأكل بها ، وتتزين بها ، وتستقل الحافلة بها ؟! ..

لكنه لم يصارح (صفوت) بآرائه ، لأن هذا سيجلب المتاعب للفتاة البائسة .. وهو لا يضمن (صفوت) ..

قال (صفوت) وقد خمّن بعض ما فى ذهن صديقه :

- ليس مـا تكسبه كثيرًا بـالطبع .. لكنهـا لـن تكسب شيئًا إذا بقيت فى دارها .. ثم إنها فى سن زواج ، ولابد أن يراها أحدهم ليتزوجها .. !

- ياله من منطق !

وإلى فمه حمل قرصين من النعناع .. وتساءل :
- هل هى تقرأ كثيرًا ؟
- تقرأ ؟ .. إنها عثة كتب ! .. صحيح أنها لا تقرأ سوى روايات ، لكنى لم أر فتاة فى مثل ظروفها تطالع كل هذا الكمّ ..
نظر (شريف) إلى خارج الغرفة ، وقد بدأت فكرة ما تتبلور فى ذهنه ..

★ ★ ★

ظلّ طيلة المساء يرمق الضوء الخافت المنبعث من شاشة (الكمبيوتر) ، .. المؤشر يتألق منتظرًا الأوامر الجديدة .. لكن (شريف) كان شاردًا يفكر فى (عبير) التى قابلها اليوم ..
لم لا ..؟
أولاً : واضح أنها ضعيفة الإرادة سهلة الإيحاء ..
ثانيًا : هى لا تفقه شيئًا فى مجال العلوم ..
ثالثًا : هى (عثة كتب) كما قال (صفوت) عنها ..
رابعًا : واضح أنها امرأة ..
خامسًا : يمكن بشىء من الإلحاح والإقناع والإغراء المادى ، أن تقبل وضع تلك الأقطاب على رأسها ...
إن هذه الفتاة ملائمة مائة بالمائة ، وقد ساقتها عناية الله إلى طريقه ليجرى عليها التجربة الكبرى ...

المشكلة هنا ليست هى هل تقبل ؟.. بل هل يقبل (صفوت) ؟.. حتمًا هو يخشى مسئولية كهذه ، ولن يقحم نفسه فيها .. ثم هو لن يجازف بفقد هذه الفتاة المطيعة المتواضعة ، التى تعمل اثنتى عشرة ساعة يوميًا ـ دون غداء ـ تحصل على خمسين جنيهًا فى الشهر ..

يجب أن يقبل (صفوت) .. وعندئذ ستقبل هى ..

★ ★ ★

(عبير) أيضًا لم تستطع القراءة إذ رقدت فى فراشها الضيق ..

لم تستطع أن تنسى ذلك الوجه الوسيم الباسم الممتلئ رجولة وحنانًا لقد حدثها بطلاقة كأنه يعرفها منذ زمن ، وأحست معه بأنها جميلة ، فهو لم يظهر ما يدل على أنه لاحظ قبحها ...

كان وجهه هو ذلك المزيج الساحر من (آلان ديلون) ، ومدرس التاريخ ، لو أن هذا الأخير لم يكن أحول ..

وأيقنت أنها ستراه مرة أخرى .. حتمًا ستراه مرة أخرى ..

★ ★ ★

- لا ياسيدى .. لن أسمح لك !

- ولكننى أؤكد لك يا (صفوت) ألا مخاطرة هنالك ..

مسح (صفوت) العرق المتكاثف على مؤخرة عنقه وجبينه .. وقال فى عصبية وهو يلتهم المزيد من (الخسّ) :

- تشومب .. تشومب ! .. هذه التجربة قد تسبب الخبال لها .. وعندئذ أكون أنا مسئولاً عن هذا أمام أهلها ..

- ومن أين يأتى الخبال ؟ .. أنا جربت ذات الشىء على نفسى ..

- ولم تحظ بنتيجة ما .. إذن أنت تتوقع أن تتبدل الأمور .. وكيف ؟ .. ربما يحدث للفتاة ما لم يحدث لك .. تشومب تشومب !

فى استسلام قلب (شلريف) كفه المفتوحة كناية عن العجز ..

ثم إنه تناول عودًا من (الخسّ) دسّه فى فمه .. وقال :

- تشومب تشومب ! .. إذن دعنى أحاول الكلام إليها بنفسى والأمر بعد هذا رهن بإرادتها الحرة ..

- تشومب تشومب !.. لك هذا .. ولكنك ستجعلها توقع إقرارًا يقول إننى لم أرغمها على شىء ولم أتدخل فى الأمر كله ..

ـ الإقرار ـ تشومب تشومب ! ـ سيجعلها تتوجس خيفة ..

ـ إما هذا وإلا فلا ..

ـ تشومب تشومب ! .. عليك اللعنة !

★ ★ ★

لا يمكننا أن نعرف الأسباب الكاملة ، التى دفعت (عبير) إلى القبول ..

ربما كان هناك ذلك الانجذاب الواضح إلى (شريف) ، وشعورها بأنها تستطيع أن تترك له مصيرها ولا تخشى شيئًا ..

ربما كان السبب احتياجها للمال .. وقد وعدها بثلاثمائة جنيه عن كل تجربة تمرّ بها ..

وربما كان السبب الأهم ، هو حاجتها إلى الفرار .. بعيدًا بعيدًا عن واقعها الكئيب .. لقد وعدها بأنها سترحل إلى جنة الخيال .. فلم لا ؟ .. لطالما تمنت هذا منذ تعلمت أن تحلم ..

وربما كان السبب هو أنها لم تعد تملك ما تفقده ، ولا يعنيها كثيرًا أن تموت أو تفقد صوابها .. فماضيها بائس ، وحاضرها تعس ، ومستقبلها مظلم .. هى تعرف هذا جيدًا ولن تخسر شيئًا لو حاولت ..

الخلاصة أنها وافقت .. وكتبت ذلك الإقرار بخطها الردىء ..

★ ★ ★

والآن يجىء اليوم الموعود ...

تجلس (عبير) على مقعد فى غرفة (صفوت) مسترخية ..

على حين يبدأ (شريف) فى وضع الأقطاب على رأسها ...

إنها اللحظة المنتظرة ...

لحظة السفر إلى (فانتازيا) ...





والآن يجئ اليوم الموعود ..

تجلس (عبير) على مقعد فى غرفة (صفوت) مسترخية ..

الجزء الثانى

الرحيل

أعتقد أننا الآن قد عرفنا كل شىء عن المسافر .. فلم تبق سوى الرحلة ذاتها .. ومن يدرى ؟ .. لربما كان هذا الجزء مشوقًا كما نأمل له أن يكون ...

١ ـ ما قبل الرحيل ...

قال (شريف) وقد احمرّت أذناه من فرط انفعال يكاد يقتله :

ـ الجهاز الذى نحن بصدد تجربته يا (عبير) ، هو فريد من نوعـه .. وقد اخترت له اسمًا موحيًا (دى ـ جى ـ ١) ..

قال (صفوت) فى ملل وهو يلفظ قشور اللبّ :

ـ ولمـاذا (دى ـ جـى ـ ١) وليـس (دى ـ جى ـ ٩٥) مثلاً ؟..

ـ (دى ـ جى ـ ١) معناها (دريم جنريتور) أى مولّد أحلام .. ولما كان هو أول نموذج ، كان من الطبيعى أن يأخذ الرقم (واحد) ..

ـ مفهوم .. وإن كنت أفضـل أن تسـميه اسمًا عربيًا مثـل (م ـ ح ـ ١) وهـو يفـى بالغرض ... إن ولعكـم بالتغريب ...

ـ ليس تغريبًا .. إن الإنجليزية هى لغة العلم اليوم .. واليابـانيون يسمون مخترعـاتهم بأسـماء إنجليزيـة .. و ... ألن تدعنى أكمل كلامى هذا العام ؟!

هزّ (صفـوت) كتفيـه معتذرًا .. وطفق يقذف اللبّ لفمه ويصغى ..

قال (شريف) لـ (عبير) وهو يوصّل أقطاب الجهاز بالدائرة ، ويفتح جهاز (الكمبيوتر) :

ـ هكذا .. يقوم جهاز (دى ـ جى ـ ١) بثلاث خطوات أساسية ..

أولاً : يبحث فى مقدمة مخك عن الخبرات التى لديك من قرءاتك ويبعثها (للكمبيوتر) ..

ثانيًا : يقوم (الكمبيوتر) بابتكار أحداث عشوائية مستخدمًا هذه الخبرات ..

ثالثًا : يرسل جهاز (الكمبيوتر) هذه الأحداث إلى مخك لتتفاعلى معها .. هل فهمت ما سيحدث ؟

ـ لا ..

قالتها (عبير) فى براءة وهى تتلذذ بكونها صارت مهمة إلى هذا الحدّ فلم يجد مفرًا من أن يتنهد ، ويتبادل نظرة ذات معنى مع (صفوت) .. ثم إنه أشار إلى جهاز (كمبيوتر) آخر وقال :

ـ أما عن هذا الجهاز ، فيقوم بتصوير ما ستمرين به على الشاشة .. على شريط (فيديو) ... وبهذا لن يذهب ما ترين هباءً .. لسوف نراه ، ولسوف ترينه أنت أيضًا ..

ونظر فى عينيها السوداوين البريئتين وهمس :

- (عبير) .. أنت أول من يجوب هذا الكون الغريب .. أول من يرحل إلى هذا العالم الذى هو وليد خيالك .. فهل أنت مستعدة ؟ إن هذا مثير .. أليس كذلك ؟

- بلى !

قالتها وأرجعت رأسها للوراء .. وأخذت شهيقًا عميقًا :

سأل (صفوت) وهو يراجع سطور البرنامج على الشاشة :

- استعملت (لغة التجميع) ؟.. لا بأس .. كم يستغرق البرنامج فى رأيك ؟

- حوالى نصف ساعة .. لكنك تذكر قول (فرويد) : لا وجود للزمن فى العقل الباطن .. ، هكذا سيخيل لها أنها عاشت دهورًا كاملة فى هذا النصف ساعة .. أنت تفهم هذا .. إن فيلمًا سينمائيًا مدته ساعتان قد تحدث فيه أحداث تستغرق قرنين ...

ثم بلل بلسانه شفتيه .. وغمغم :

- والآن فلنبدأ ..!

وعلى شاشة (الكمبيوتر) الأول كتب أمام المؤشر الذى يشبه علامة أصغر من (<) اسم البرنامج (دى - جى - ١) ..

ثم ضغط زرّ الإدخال ..

وبدأ البرنامج يعمل ..

★ ★ ★

هى الآن تتذكّر ...

كانت تريد أن تحرم (دعاء) شقيقتها من لعب الكرة .. الكرة الوبرية الجميلة المحشوة بالإسفنج .. أخفتها فى .. فى .. فى تنجيد المقعد بين خيوط الكتان .. كان المقعد ممزقًا منذ عرفت بوجوده ...

ثم نسيت كل شىء عن الكرة وعن مكان إخفائها .. لكنها الآن تتذكّر غريب هذا ! .. ٤ × ٧ = ٢٨ .. ظل تمام الزاوية ..

كان خالها يملك وحمة على خده الأيسر ، لهذا كانت تكره أن تقبله .. الوحمة البشعة حمراء اللون التى توحى بالبلل ...

٦ × ٣ = ١٨ .. خيزرانة مدرسة التاريخ كانت ملفوفة بشريط لاصق أخضر .. ١٨ ضربة بالخيزرانة ، لأنهارلم تحفظ الدرس .. (جوهر الصقلى) بنى القاهرة .. كيف نسيت ذلك برغم أنه بديهى ؟..

(إيما لازاروس) شاعرة برتغالية هى صاحبة الكلمات المنقوشة على قاعدة تمثال الحرية تذكرها جيدًا لأنها رأت صورتها وأحست بأنها تشبهها .. الوجه الأسمر بارز العظام .. إلىّ أيها المتعبون فأنا أحمل مشعل الحرية .. ١٢ × ١٢ = ١٤٤

(حمدية) الشمطاء ساكنة الطابق السفلى .. كانت تداعبها مع زوجها بقذفها فى الهواء كالكرة .. قذفتها نحو زوجها لكن هذا الأخير لم يلتقطها فى الوقت المناسب .. سقطت أرضًا وتهشمت عظمة ترقوتها .. آى ! .. من الغريب أنها تشعر الآن بذات الألم الحادّ الممضّ .. آى ! ..

اللوغاريتمات مستحيلة الفهم .. لكنها أحبّت الشعر ، حتى ولو كان ذلك الشعر الجاهلى المتحجّر ..

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لماذا يحبّ شعراء الجاهلية أن يخاطبوا المثنى ؟! .. ما أقسى بذرة المانجو .! لكنها قضت ساعات وساعات تحكها فى بلاط الصالة ، محاولة أن تثقبها من الطرفين جاعلة منها صفارة .. (هند) قالت لها ذلك .. و (هند) كانت لها قدمان جميلتان .. لكن الامتحان كان عسيرًا .. والبُرص الذى يأتى فى الصيف ليقف على سقف غرفتها لم يعد يجىء .. و .... ٨ × ٧ = ٥٦ .....

إنها تجد صعوبة غير عادية فى إيقاف شلال الخواطر هذا ....

كأنه يدفعها بسرعة نحو هاوية مظلمة بلا قرار ...

تحاول التشبث بحافة المقعد ..

التشبث بغصون أشجار لا تدرى من أين جاءت ..
لكن التيار أقوى منها ...
وها هى ذى الهاوية .....
....

★ ★ ★

بعد لحظات من الترنّح والتمسك العصبى بمسندى المقعد ؛ بدأ رأسها يسترخى أخيرًا .. وانفتح كفاها ....
نظر (شريف) إليها ...
كانت عيناها مغمضتين ، ورأسها يميل إلى اليسار .. ، ومن فمها نصف المفتوح سال خيط من اللعاب إلى صدرها ...
نظر إلى شاشة (الكمبيوتر) ، فوجد البرنامج يعمل كأفضل ما يكون .. كان قد تعمّد جعل البرنامج يكتب على الشاشة أرقامًا ؛ ليعرف بها فى أية مرحلة هو .. والآن كان الرقم هو (٤) .. أى أن محتوى ذكريات الفتاة قد تدفق إلى ذاكرة (الكمبيوتر) ، وتم تلفيق أحداث عشوائية له .. والآن يُعاد بثّ هذه الخيالات إلى عقلها ..
وعلى (الكمبيوتر) الآخر ـ الموصول بجهاز (الفيديو) ـ كانت الشاشة ترسم حشدًا من الظلال والخيالات والأرقام بسرعة يستحيل تتبعها .. سأله (صفوت) وهو يشير إلى تلك الشاشة :

ـ ما هذا ؟

ـ جاربيدج ..

قالها مستعملاً تلك الكلمة الإنجليزيـة التى تـدلّ علـى القمامـة .. الركـام .. المخلفـات التـى تخـرج مـن ذاكـرة الفتاة بسرعة غير عادية .. ، وهو يعـرف أن الفتـاة لـم تنس شيئًا فى حياتها .. من مذاق أول رضعـة ذاقتهـا ، وحتى لفظة (فلنبدأ) آخر ما قاله (شريف) لها .. فقـط هى لا تعرف أنها تذكر ذلك .. ولا تعرف كيفية إخراجـه من دهاليز عقلها .. والآن ها هى ذى تخرجه كلـه علـى الشاشة ليُعاد تنسيقه ...

لكنه أحسّ بالقلق من جسدها المتراخى ...

ظلّ يرمق الشاشتين بضع ثوان ..

ثم إنه ـ وقد بدأ الفأر (يلعب فـى عبّـه) إذا سمحتم لى بالتعبير ـ قرر أن ينهى التجربة عند هذا الحدّ ..

إن البرامج المكتوبة بلغـة الآلـة تصعب مقاطعتهـا ، وعندما تقاطع يكون الاستمرار من نفس النقطـة عسيرًا .. لكن (شريف) كان قد أعدّ حلقة دائمة تجعل (الكمبيوتر) يتفقـد المفاتيـح كلمـا مرّ $\frac{١}{٦٤}$ من الثانيـة .. فإذا ما وجـد المسطرة مضغوطة أنهى البرنامج ..

ضغط (شريف) المسطرة فلم يحدث شىء ..

أعاد ضغطها دون جدوى ...

ـ ماذا حدث ؟

ـ إنه الانهيار (كراشى) ..

والانهيار ـ أو الـ (كراش) ـ يحدث حين يدخل البرنامج حلقة مفرغة دائمة .. عندئذ تستحيل مقاطعته .. ولا يوجد حلّ سوى قطع التيار الكهربى عن الجهاز والبدء من جديد .. ، تم هذا نتيجة خلل فى البرمجة .. كأن تطلب من رجل أن يتوجه إلى صديق لك .. فإذا ذهب لهذا الصديق طلب منه أن يتوجه إليك ! .. وهكذا دواليك ..

ـ اذن أغلق الجهاز ..

ربما لو .. لحظة ...

وحاول من جديد أن يضغط المسطرة لكن (الكمبيوتر)

ـ ذلك الوغد ـ ظل متجاهلاً لها فى تعصب عنيد ..

كان مستمرًا فى محاولاته حين نهض (صفوت) وتفحص الفتاة .. مدّ إصبعين وفتح جفنها .. فرأى الحدقة الشاخصة المتسعة ..

قال وهو يتأمل وجهها :

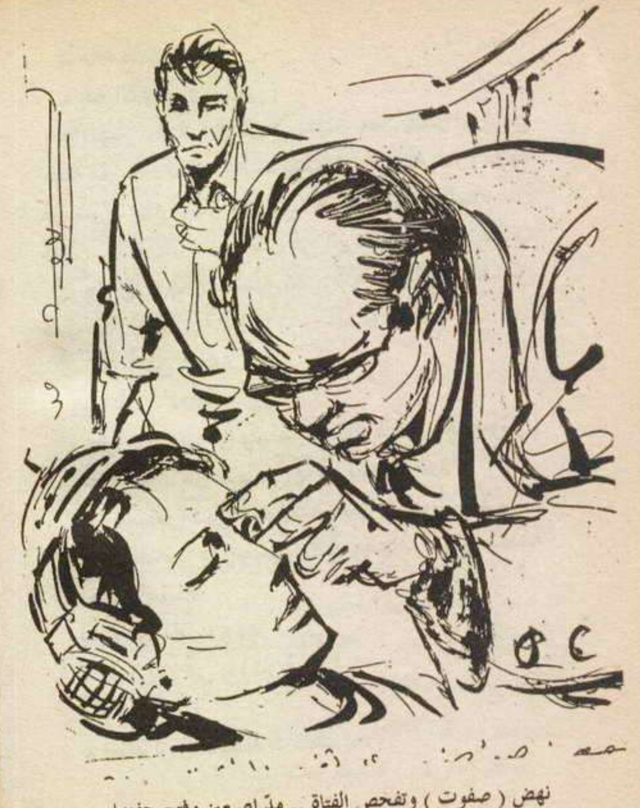
ـ هل تريد رأيى يا (شريف) ؟

ـ هم م م م ؟!

ـ أعتقد أن هذه الفتاة قد ماتت !

....

★ ★ ★



نهض (صفوت) وتفحص الفتاة .. مدّ إصبعين وفتح جفنها ..
فرأى الحدقة الشاخصة المتسعة ..

٢- من يملك الحلّ ؟

كان المحقق - والشهادة لله - مهذبًا ، ونجح فى جعل الجو العام للتحقيق أقرب إلى الودّ .. كأنهما صديقان يثرثران ...

قال وهو يشعل لفافة تبغ لـ (شريف) : نسيت أن أقول إن (شريف) قد نجح فى الإقلاع عن .... أقراص النعناع :

- أكرر لك يا أستاذ (شريف) .. عملى ليس هو أن أدمرك أو أخرب بيتك .. بل عملى هو معرفة الحقيقة ..

ثم حكّ فوده بكفه وقرّب رأسه من (شريف) وأردف :

- لهذا أتوقع منك أن توضح لى الأمر ، ودون أية مصطلحات تقنية ..

هل (عبير) هذه ميتة أم لا ؟

قال (شريف) وهو يفكّ ربطة عنقه :

- ليست ميتة حتمًا .. إنها تتنفس .. وتنبض .. وعقلها يرسل موجات كهربية .. لنقل إنها فى غيبوبة .. ألم يقل أطباؤكم الشرعيون ذلك ؟

- بلى ..

قالها المحقق وأعاد تفحص الشاب الوسيم الجالس أمامه ، عيناه تنمان عن أقصى حالات التوتر والإرهاق .. شاب على حافة الانهيار العصبى وقد احمرت أذناه كالطماطم من فرط شعور بالذنب ..

- وما سر هذه الغيبوبة ؟

- لقد دخل وعيها دائرة مغلقة مع برنامج (الكمبيوتر) .. إنها غارقة فى الأحلام .. لقد حدث شىء ما (لتركيبها الشبكى) المسئول عن بقائها مستيقظة ..

- إذن لماذا لا تغلق (الكمبيوتر) وينتهى الأمر ؟

- من الممكن أن نجرب هذا ، لو كنا واثقين من أن الصدمة لن تؤدى إلى وفاتها .. إن كل خبراتها وذكرياتها ، تدور دورة منتظمة من مخها إلى (الكمبيوتر) فالعكس .. فلو أوقفنا الجهاز ، بينما هذه الخبرات داخل ذاكرة (الكمبيوتر) ، فلربما أدى هذا إلى هلاكها .. ومن يدرى ؟.. لربما أدى هذا إلى استيقاظها .. أو استيقاظها مخبولة عاجزة عن اتخاذ قرار .. لا أحد يدرى ما سيحدث ..

- إذن فجهاز (الكمبيوتر) مستمر فى العمل ؟

- بالتأكيد .. لقد حرصنا على عدم انتزاع الأقطاب من على رأسها .. وقمنا بتوصيل (الكمبيوتر) إلى

مولّد صغير فى أثناء نقلها إلى المستشفى .. ثم قمنا بنقل الدائرة لتعمل على مصدر تيار غير قابل للانقطاع (يو - بى - إس) حتى نضمن عدم وقوع حوادث مؤسفة ..

- إذن فالفتاة الآن ..

- لنقل إنها فى حالة إحياء مؤقت .. تتغذى على المحاليل الوريدية ، ويتم مراقبة تنفسها ونبضها ..

- وإلى متى ؟

- إلى أن تموت أو نجد مخرجًا ..

نظر المحقق إلى (شريف) وضمّ أصابعه قائلاً :

- أعتقد أنك فى ورطة حقيقية يا أستاذ (شريف) !

دفن (شريف) باقى لفافة التبغ فى المطفأة .. وهزّ رأسه :

- نعم .. أعرف هذا !

★ ★ ★

كانت (عبير) هناك فى المستشفى .. ممددة على فراش فى العناية المركزة ، وجوارها جهازا (كمبيوتر) يعملان بلا انقطاع ..

كانت (تتنفس) دون عون من أحد ، وفيما عدا الخوف من قرح الفراش الذى كان يدعوهم إلى تقليبها كل ساعتين ؛ لم تكن هناك مشاكل ما ، كأنها الأميرة النائمة التى تنتظر أميرها ليوقظها ..

وعلى (الكمبيوتر) المستقبل تتوالى الصور بسرعة جنونية ، يستحيل معها تبين شيء ما .. أما (الكمبيوتر) المرسل فعلى شاشته تتوالى الأرقام ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١ ـ ٢ ـ .... دواليك ..

كانت حالة فريدة من نوعها ...

وقد جاءها حشد من الأطباء وخبراء (الكمبيوتر) ، لرؤية أول غيبوبة يسببها (الكمبيوتر) فى التاريخ ..

وتم الاتفاق على نقلها إلى أحد مراكز الإحياء المؤقت فى (نيوجيرسى) بالولايات المتحدة ، وأن تقوم الحكومة الأمريكية بتمويل علاجها الذى يتكلف ستمائة دولار يوميًا ، وهو رقم يستحيل على أهلها البؤساء أن يوفروه على مدى عام كامل ..

وهكذا .. ينتهى الأمر ببطلتنا غائبة عن العالم تمامًا راقدة على فراش خاص بقرح الفراش ، على حين تتوافد الخبرات العلمية لرؤيتها والإدلاء بالآراء .. ولا داعى للقول إن جهازى (الكمبيوتر) جوارها لم يتوقفا لحظة عن العمل ، لأن أحدًا لم يجرؤ على محاولة الإيقاف .

أما عن (شريف) و (صفوت) فقد أخلى سبيلهما بكفالة لأن جريمتهما ـ إن وجدت ـ لم تكن قابلة لتصنيفها فى أية خانة قانونية ..

عاد (صفوت) يبحث عن فتاة أخرى تدير له مكتب (الكمبيوتر) ، على حين شدّ (شريف) رحاله إلى الولايات المتحدة ..

لقد أقسم : لو أن هناك علاجًا لحالة الفتاة فهو ـ حتمًا ـ واجده قبل أى إنسان آخر ..

لن يغفر لنفسه أبدًا أن تلك الفتاة المفعمة بالحيوية صارت جثة حية بسببه .. لأنها وثقت به ..

★ ★ ★

وفى (نيوجيرسى) وجد أن العلماء هناك عاكفون على تجربة مثيرة .. إن الصور السريعة التى يلتقطها جهاز (الكمبيوتر) من ذهن (عبير) ، قد تعنى شيئًا .. لو أنهم فقط تمكنوا من إبطائها قليلاً فلربما استخلصوا منها ما يطلعهم على ما تراه الفتاة فى سباتها الطويل هذا ..

وبدأت المحاولات البطولية لتصوير هذه الصور على شرائط (فيديو) .. ثم نقل هذه الشرائط إلى أفلام مقياس (١٦ مم) .. ثم دراسة كادرات هذه الأفلام ، ومحاولة التوصل إلى سرعة مناسبة لعرضها ..

وأخيرًا أدركوا أن السرعة المثلى هى كادران لكل ثانية (سرعة العرض العادية هى أربعة وعشرون كادرًا لكل ثانية) ...

وجلسوا ومعهم (شريف) يتأملون حصيلة يوم كامل من الخيالات التى خرجت من مخ (عبير) ....

كان الفهم عسيرًا .. والصور أقرب إلى الأطياف ...

لكنهم استطاعوا استنتاج قصة لا بأس بها ...

وعرفوا الكثير عما تمرّ به الفتاة فى هذه اللحظات ...

★ ★ ★

الجزء الثالث

فانتــــازيا

أما وقد اقتربنا من نصف الكتيب ، فـلا داعـى للمزيـد من إضاعة الوقت .. ولنسرع إلى (فانتازيا) ..

١ ـ عالم جديد ...

ها هى ذى (عبير) تقف هناك ...

شعرها يتطاير مع الريح والشرود يطلّ من عينيها ..

وأمامها ـ حيث وقفت على الهضبة ـ يمتد نياك الوادى السحيق ، تحيط به مجموعة من المرتفعات والغابات متشابكة الأشجار ..

لم تكن تعرف أين هى ولا من هى ..

ثم بدأت تعرف إجابة السؤال الثانى ..

هى (عبير عبد الرحمن) .. جاءت هنا بعد اجتيازها تجربة مولّد الأحلام (دى ـ جى ـ ١) الذى ابتكره ذلك المهندس الوسيم (شريف) ..

أين هى ؟ .. وكيف وصلت ها هنا ؟ ..

ـ مرحبًا بك يا آنسة فى (فانتازيا) .

سمعت هذه العبارة فأجفلت .. استدارت للوراء لترى رجلاً يرتدى سترة سوداء أنيقة ، ويضع يده فى جيبه .. كان مهذبًا يتمتع بوجه مريح .. لكن هذا لا يبرر وجوده ها هنا خاصة وهى لم تره قادمًا ..

ـ من أنت ؟

هزّ الرجل وجهه بتؤدة .. وأخرج من جيبه قلمًا من الذى يُفتح ويُغلق بضغط أعلاه .. وقال :

- إنهم يدعوننى (المرشد) .. ومهمتى هى أن أجعلك أكثر إلمامًا بجوانب عالمك الجديد .. إن هذا يستغرق وقتًا كما تعلمين ..

تراجعت للوراء خطوتين .. وتأملته حيث وقف كالتمثال أمامها .. لا شىء يتحرك فيه سوى إصبعه الذى يضغط على القلم مخرجًا ومدخلًا السنّ مرارًا .. تك ! .. تتك ! .. تك ! .. تتك ! ..

سألته وهى تحاول ألا تبدى رعبًا :

- تبدو .. تبدو شبيهًا بشخص أعرفه ..

- طبعًا .. أذكرك بأستاذ اللغة العربية الذى كان يدرس لك وأنت طفلة .. كان يعرف كل شىء بالنسبة لك ، وظلّ رمزًا للعلم فى عقلك الباطن .. لهذا من الطبيعى أن أكون أنا من يقودك عبر هذا العالم ..

ثم ابتسم وواصل ضغط القلم ..

- أنت ضيفة على عالمنا الذى هو عالمك الخاص ..

- ماذا تعنى ؟..

- أعنى أن هذا العالم كله من صنع خيالك أنت .. بعبارة أخرى أنت تائهة فى دهاليز عقلك .. كل هذه الوديان .. الجبال .. الأشخاص .. كلهم من نسج خيالك الخاص ..

لم يبدُ عليها أنها فهمت شيئًا ، فأخذ بيدها برفق ودعاها كى تنزل معه إلى الوادى .. لم تجد القوة كى تعترض ..

★ ★ ★

لاحظت أن الوادى يمتد إلى مساحة شاسعة .. وأدركت أن هناك خلف الجبال توجد مدينة كاملة شامخة المبانى ..

كان هناك أطفال يلهون هنا وهناك .. وثمة فلاحة تملأ جرّة ماء من نهر لا تذكر (عبير) أنها رأته من أعلى ..

وكانت هناك قضبان قطار تمرّ بمحاذاة النهر ..

ثم رأت القطار نفسه يدنو .. قطارًا مكونًا من عربة صغيرة زاهية الألوان ، تجرها مقطورة بدائية .. ورأت القطار يقف أمامها كأنه بانتظارهما ..

ـ هذا هو القطار وسيلة التنقل فى (فانتازيا) ..

قالها (المرشد) وهو يقودها إلى ذلك القطار العجيب .. دعاها للصعود فلم تجد مفرًا .. وضعت قدمها اليمنى على الدرجة المعدنية الأولى ثم تبعتها باليسرى .. وشرع القطار يهتزّ قاصدًا وجهته المجهولة ..

قال لها مبتسمًا وهو يسترخى فى مقعده الخشبى البسيط :

ـ كما ترين يشبه الأمر ذلك القطار الذى يجوب بالزوار مدينة (ديزنى لاند) ..

لم تردّ لأنها كانت منهمكة تراقب الأشياء العجيبة التى تتلاحق على جانبى الطريق ..

كانت هناك مدينة تشبه مدن رعاة البقر فى كل شىء .. الحانة واسطبل الخيول وعربات المسافرين ، وفى الشارع الرئيسى رأت فارسين يتقدمان ببطء نحو بعضهما ، ويد كل منهم تحوم حول مسدسه ..

ثم رأت كلاً منهما يسحب سلاحه بسرعة البرق ، وسمعت دوى الرصاص ، ثم رأت جثة أحدهما ممددة على الأرض تنزف دمًا ..

- هنا الجزء الخاص بقصص (الوسترن) - قال (المرشد) إذ رأى اهتمامها - ويمكنك هنا أن تقابلى أبطالاً قرأت عنهم مثل (بافالوبيل) و (ديفى كروكيت) .. هل ترغبين فى النزول هنا ؟

- لا ..

الثلج يتكاثف على الأرض ، وريح باردة تهبّ عاصفة بجسدها النحيل .. والسماء تكفهرّ ببطء .. وبعد ثوان ألفت القطار يسير بين الثلوج .. وفجأة وجدت المشهد يتبدل لترى أدغالاً إفريقية تتلألأ تحت شمس حارقة .. وثمة فرس نهر يتثاءب فى مستنقع ..

قال (المرشد) وهو يداعب القلم :



"كانت هناك مدينة تشبه مدن رعاة البقر فى كل شىء ..

- هذا هو الجزء الخاص بأدغال (إفريقيا) .. يمكنك هنا أن ترى أبطال (هى) أو (كنوز الملك سليمان) .. أو لورد (جراى ستوك) الشهير بـ ...

هاآآآآآآآآآآآآه !

دوت الصيحة المألوفة فى أذنها فنظرت لترى ذلك العملاق الأبيض يتواثب بين الأشجار متعلقًا بفرع متدل ، يتبعه (شامبانزى) صغير ..

تحركت شفتاها لتكمل عبارة (المرشد) والانبهار يخنقها :

- ... الشهير بـ (طرزان) !

القطار مستمر فى طريقه ..

ترى الآن مدينة تشبه مدينتها ، وأزقة كالتى تربت فيها .. ووجوهًا لا يمكن إلا أن تكون مصرية .. سألت (المرشد) فى حيرة :

- وهذا ؟

- إنها قاهرة أبطال (نجيب محفوظ) و (يحى حقى) وغيرهم ..

يمكنك هنا أن تقابلى (أحمد عبد الجواد) وسواه ..

ظلت ترمق المشهد مفتونة ، بينما القطار يواصل رحلته الغريبة ..

وها هى ذى ترى مدينة حديثة ، تلتمع ناطحات سحابها فى ضوء الشمس .. وفى السماء تحلق طائرة مدنية يتصاعد الدخان الأسود من محركاتها ..

يبدو أن قائدها يلاقى مشكلة ما ...

وفى اللحظة التالية ، ترى شيئًا ما يشق عنان السماء .. شيئًا بدا لها أشبه بخط طويل أزرق - أم لعله أحمر ؟ - يدور دورة واحدة ثم يتجه إلى ذيل الطائرة ليمسك بها ..

وتوازنت الطائرة ثم شرعت تهبط - ببطء - إلى حيث اختفت خلف المبانى ..

وسمعت (عبير) (المرشد) يقول لها وهو (يتكتك) القلم :

- أهو طائر أم طائرة ؟.. لا .. إنه (سوبر مان) !

- أتعنى أنه هنا ؟ .. هذا شىء خيالى !

- ولم لا ؟ ... إن الخيال هو اسم اللعبة هنا يا صغيرتى ..

كان الظلام قد بدأ يسود المدينة .. اللون الأزرق يغلف ناطحات السحاب بلا رحمة ، وفجأة هى ذى ترى دائرة من الضوء تسقط على جسم إحدى الناطحات .. وفى وسط الدائرة ارتسم ذلك الخيال المألوف .. خفاش يفرد جناحيه ..

- إنها (جوتام سيتى) .. هناك متاعب ما دفعتهم لاستدعاء الرجل الوطواط ! .. هل تريدين النزول هنا ؟

- لا .. - متلاحقة الأنفاس - أريد أن أرى هذا العالم كله مرة واحدة !

- لن تجدى عمرًا كافيًا لذلك .. إن كل إبداعات الإنسان عبر العصور هنا ..

الآن تنتهى المدينة ، وتجد نفسها وسط خرائب إغريقية تحوم فوقها طيور لها وجوه بشر .. وترى رجالًا أقوياء كالأسود يصارعون مسوخًا .. ومن بعيد يتحرك عملاق ذو عين واحدة يصطدم رأسه بالسحاب ..، وعادت الشمس تشرق ..

قال (المرشد) فى لامبالاة :

- هذا هو عالم الأساطير الإغريقية .. حروب طروادة .. (ميدوسا) و (هركيول) و (وأطلس) ..

القطار يمرّ بجبلين .. وتمدّ (عبير) عنقها الناحل لترى رجلًا ضخم العضلات معلقًا بين الجبلين وهو يتلوى ألمًا ..

- هل ننقذه ؟

- دعك منه .. إنه (بروميثيوس) يتلقى عقابه على سرقة النار المقدسة ..

ثم تثاءب وأردف :

- لسوف ينقذه (هركيول) يومًا ما ..

القطار يمشى الآن ببطء على حافة واد سحيق مظلم .. وترى (عبير) الوادى أقرب إلى وديان القمر بحفره البركانية العميقة ورماله الرمادية .. ثم ترى من بعيد شيئًا أشبه بقذيفة المدفع ، وشيئًا أشبه بالكرة .. تميل على (المرشد) تسأله :

- وما هذا ؟

- إنه عالم القمر حيث أحداث (أول رجال على القمر) و (من الأرض إلى القمر) ..

- إذن كيف نتنفس نحن بهذه السهولة ؟

- لأن كل هذا خيال .. لكنك لو نويت مغادرة القطار لاستحال عليك التنفس لأنك ستعاملين وقتها بقواعد القصة ..

ومن بعيد تدور المكوكات الفضائية وتحوم الأطباق الطائرة .. ثمة سفينة فضاء عملاقة ، تطلق إشعاعات خضراء على كل ما يتحرك فينفجر .. وتتناثر الشظايا ..

- عالم روايات الفضاء .. ستجدين هنا كل ما كتبه (أرثر كلارك) و (راى برادبورى) و (إيزاك أزيموف) و (نهاد جاد) و (رءوف وصفى) وغيرهم ...

ويستمر القطار فى الاهتزاز مارًا بما يمكن أن يكون مدينة فرنسية من القرن الماضى .. نساء يرتدين تنورات طويلة ويحملن المظلات ، يلوحن بأيديهن للقطار .. ورجال يرتدون (الريدنجوت) يلوحون بقبعاتهم ....

ـ هل تحبين الروايات العاطفية الفرنسية ؟

ـ لا أدرى ..

ـ هنا تقابلين غادة الكاميليا ، ومدام (بوفارى) ، وكل بطلات (بول بورجيه) وغيره .. ومن يدرى ؟ .. ربما قابلت (أرسين لوبين) ! ثم ظهر حشد من الغوغاء يتصايحون .. كأنها مظاهرة .. وقد تقدم أحدهم الموكب يحمل راية مثلثة الألوان ، وخلفه آخر يحمل بندقيته .. والموكب يحيط بعربة تجرها خيول ، يقف بداخلها مجموعة من الرجال والنساء الذين تنم ثيابهم الرثة عن أصل راق عومل بعنف ..

قال لها (المرشد) :

ـ هذا المكان يسبق ما رأيناه بمائة عام .. هؤلاء النبلاء ذاهبون إلى المقصلة !

ـ تعنى أن هذه (قصة مدينتين) لـ (تشارلز ديكنز) ؟

هزّ رأسه فى سأم وغمغم :

- وكيف لى أن أعرف ؟ .. ربما كانت إحدى قصص (فكتور هوجو) ..

وتسمع الحشد يهلل فتشيح ببصرها عن المنظر القاسى ..

ومن بعيد ترى غابة أخرى .. غابة تختلف عن الإفريقية التى رأتها .. وتسمع صوت بوق يدوى .. ثم ترى عشرات الأشخاص يرتدون ثيابًا خضراء ، ويثبون من فوق الشجيرات ، بينما كل منهم يحمل فى يده قوسًا وسهمًا .. قال (المرشد) :

- هذه هى ......

- نعم .. نعم .. (شيروود) حيث يعيش (روبن هود) الخارج على القانون .. ولكن من هو هذا الفارس الملثم الذى يحمل رمحًا ؟

- إنه (إيفانهو) .. كلها أساطير إنجليزية عتيقة ، لكننا ندين بالفضل للسير (والتر سكوت) الذى جمعها ونسقها .. مثلما فعل (عبد الرحمن الأبنودى) بكل التراث المبعثر عن (أبو زيد الهلالى) ..

وبدأ المشهد يتكشف عن مجموعة من القلاع رهيبة الشكل .. وألسنة البرق تهوى من السماء لتعطيها - لثوان - منظرًا يجمد الدماء فى العروق ..

قال (المرشد) وهو يشير لها إلى بعيد :

ـ هذا هو عالم الرعب هنا .. هذه الشامخة هناك هى قلعة الكونت (دراكيولا) .. ستجدين هنا الكثير من المذءوبين والموتى الأحياء ، ولربما صادفت د . (فرانكنشتاين) عاكفا على اختراعاته الشنيعة .. ولربما قابلت العجوز (رفعت إسماعيل) !

ـ يا للهول ! .. أنا لا أهوى الرعب ..

ـ وأنا مثلك .. لهذا لا أزور هذا المكان كثيرًا ..

ويترك القطار هذه الهضاب لترى من بعيد بحيرة تتوسطها جزيرة .. والجزيرة يتوسطها بركان شبه ثائر .. معركة بالمسدسات بين رجال يرتدون ثيابًا معدنية براقة ورجل متأنق يرتدى بذلة السهرة البيضاء ورابطة عنق ، بينما يمسك فى يده يد حسناء شقراء ، ويطلق الرصاص باستمرار .. ويجرى ، من العجيب أن الرجال المعدنيين كانوا يسقطون .. فى حين لم تؤثر فيه طلقاتهم على الإطلاق كأنما يضربونه بالحلوى ..

ودنت طائرة (هليكوبتر) غريبة المنظر ، فتعلق الرجل ببابها ، وساعد الفتاة على الصعود .. وأطلق طلقتى رصاص قتلتا ستة رجال ـ لا أدرى كيف ـ ثم وثبت إلى الطائرة : ومن بابها المفتوح أخرج يده يلوح بكأس من (الشمبانيا) للرجال المطاردين الذين ظلوا أحياء ..

ـ ما هذا الهراء ؟

- إنه العميل (صفر صفر سبعة) .. أو بعبارة أخرى (جيمس بوند) فى إحدى قصص (إيان فلمنج) .. ألا تقرئينها ؟

- بلى .. قرأت واحدة فى سن العاشرة وكدت أموت غيظًا من لا معقولية الأحداث ..

- إن (جيمس بوند) له معجبوه .. وعلى كل حال يمكنك ألا ترتادى هذا الجزء ..

★ ★ ★

ومن بعد رأت (عبير) مدينة يعود طراز مبانيها إلى القرن الماضى ، أو أوائل هذا القرن ..

كانت العربات ذات الخيول تمضى هنا وهناك فوق الأرضية المصنوعة من الحجارة ، على حين يتصاعد الضباب فى كل مكان ، ورجال شرطة يرتدون ثيابًا سوداء وقبعات عالية غريبة ، يسيرون هنا وهناك ملوحين بهراواتهم ...

وكان الرعاع يتبادلون السباب بلغة فظة .. فهم لا ينطقون الهاء بتاتًا بل ينطقون الهمزة بدلاً منها ، وحتى بإنجليزيتها الكسيحة أدركت أنهم يتحدثون بلغة سوقية خشنة ..

قال لها (المرشد) وهم يعبرون السوق المزدحم :

ـ (لندن) القرن الماضى وبدايات هذا القرن .. هى مسرح لعدد كبير من القصص المسلية ..

وواصل ضغط القلم وتركه .. تك .. تتك .. تك ! .. (لقد بدأت هذه العادة تثير أعصابها حقًّا) .. وأردف .

ـ ستجدين هنا (شيرلوك هولمز) وكل شخصيات (تشارلز ديكنز) .. لربما صادفت (أوليفر تويست) يتسكع فى مكان ما .. هناك عالم شاب فى داره الآن يجرب آلة الزمن ، بينما د . (جيكل) يتحول إلى مستر (هايد) فى معمله المظلم .. وشخص ملثم يعبر الطريق ، دون أن يعرف أحد أنه هو الرجل الخفى .. وفى أحد الأقبية يرقد الكونت (دراكيولا) فى صندوقه الخشبى المستورد من (رومانيا) ، عازمًا على مصّ دماء (مينا) !

ثم نظر لها نظرة إغراء .. وسألها :

ـ هل نتوقف هنا ؟

نظرت له وقلبها يخفق انفعالاً ..

ـ لِمَ لا ؟

وهكذا توقف القطار ...

ونزلت منه (عبير) لترتاد هذا العالم ....

★ ★ ★

٢ ـ أدركنى يا مستر (هولمز) !

ابتسم (المرشد) لـ (عبير) وقد رأى انبهارها بهذا العالم :

ـ إذا ما سئمت (لندن) هذا العصر ، يمكنك الاتجاه غربًا إلى حيث تجدين (لندن) المعاصرة .. أو شرقًا إلى حيث تجدين (لندن) فى عصور غابرة .. وكما قلت لك لا مستحيل هناك ..

كانت هى تسير مبهورة فى عالم لا يصدق ..

بائعات الزهور يسرن هنا وهناك ، ورجال الشرطة يرمقون الصبية المتشردين بعين الشك ، على حين تشق العربات ذات الخيول طريقها عبر الشوارع التى تنيرها مصابيح (الكيروسين) على أعمدتها ، وينزل من هذه العربات رجال متأنقون ، يرتدون السترات الطويلة والقبعات العالية ، يتأبطون أذرع نسوة يرتدين التنورات الواسعة المزركشة بالدانتيلا ، ويحملن مظلات تقيهن المطر ..

كان الجو معتمًا وسحب كثيفة تغطى وجه الشمس الذى يطلّ على استحياء من أعلى ..

وكان هناك سيرك فى نهاية الشارع ، يقف على بابه رجل بدين ، يكرر ـ دون كلال ـ كلمات لابد أنها دعاية لما بالداخل ، وجواره رجل نحيل أسمر ينفث النيران من فمه .. وفقير هندى يلف ثعبانًا من نـوع (الأصلة) حول جذعه الناحل ..

قال لها (المرشد) وهو يشير إلى السيرك :

ـ لو دخلت لربما رأيت الرجل الفيل ذاته(★) !

ابتسمت .. ونظرت له فى امتنان ..

لم يخطر لها قط أن خيالها قادر على اصطناع هذا العالم الساحر الذى يدير الأعناق ....

أما الجديد فى الموضوع ، فهو أنها أدركت فجأة ، أنها لم تعد ترتدى ثيابها العصرية الرخيصة .. نظرت لأسفل فوجدت أنها ترتدى ثوبًا واسعًا مزركشًا بالدانتيلا ، فوقه تايور أنيق .. ووجدت فى يدها مظلة ، وعلى رأسها قبعة عالية ، أدركت من نظرة إلى صورتها فى واجهة محل أنها محلاة بالزهور ...

(★) جون ميريك أو الرجل الفيل شخصية حقيقية عاشت فى القرن الماضى وكان يعانى من تشوه خلقى مريع جعله أقرب إلى فيل بشرى ، ومن العجيب أن المطرب غريب الأطوار (مايكل جاكسون) دفع مبلغًا فادحًا لشراء مومياء هذا الرجل الفيل .



نظرت لأسفل فوجدت أنها ترتدى ثوبًا واسعًا مزركشًا
بالدانتيللات ، فوقه بايور أنيق ..

إن (دى - جى - ١) يؤدى عمله جيدًا ..
لقد أعدّ لها كل شىء كى تندمج فى القصة ..
الأغرب هو أنها صارت قادرة على فهم الإنجليزية والكلام بها ، لا تدرى كيف .. حتى إنجليزيةِ الرعاع المشوهةَ التى يسمونها (كوكنى) لم تعد غريبة عليها ..
قالت (للمرشد) وهى ترمق أحد السكارى يخرج من حانة :
- ومتى أستطيع مغادرة هذا العالم أيها المرشد ...؟
وقطعت عبارتها لأنها أدركت أنه لم يعد واقفًا جوارها ..! ..
لقد اختفى (المرشد) بعد أن قادها إلى قلب (لندن) فى القرن التاسع عشر .. وكأنه أنهى مهمته ...
تركها وحيدة لتعيش مغامرتها ..!

★ ★ ★

رأت أمام عينها لافتة محل كبير اسمه (ستانفورد) .. فخطر لها أن تدخله لتتفقد المعروضات بالداخل .. لسوف يعطيها هذا فكرة أفضل عن أزياء هذا العصر ولوازمه ..
ثم لماذا لا تشترى شيئًا ؟.. كانت الآن تعرف أن فى كيس نقودها مبلغ مائة جنيه استرلينى لا تدرى كيف

جاءت .. لكنها تكفيها فى الوقت الحالى .. إن (لندن) بالتأكيد لم تكن باهظة التكاليف فى ذلك الزمن المبارك ..

دخلت المحل ، وشرعت تتأمل فى انبهار الموديلات الخشبية التى تمثل فتيات يستعرضن أناقتهن ...

كانت هناك علب تبغ كثيرة ، وكتب ، وأدوات كتابة ، وقطع أثاث فاخرة .. لقد كان المحل أقرب إلى ما نسميه اليوم (سوبر ماركت) ..

وكانت البائعات يركضن فى كل الأرجاء ـ كالنحل ـ على حين وقف رجل بدين أصلع ، يرتدى ثيابًا متحذلقة ، وقد قلب شفته السفلى اشمئزازًا ؛ يصدر لهن تعليماته وينتقدهن بغلظة ..

من الواضح أن هذا هو المستر (ستانفورد) نفسه ..

ثم اختلست نظرة لخارج المحل فرأت رجلين يتناجيان .. أحدهما متأنق شعر رأسه بلون الثلج ، والآخر رثّ الثياب يبدو كالعمال .. وبعد قليل رأت الرجل رثّ الثياب يدفع باب المحل الزجاجى ، ويتقدم إلى البائعة الحسناء ، حاملا لفافة ما ...

ـ هل أستطيع معاونتك يا آنسة ؟

بوغتت (عبير) للحظة .. ثم نظرت للوراء فرأت بائعة شقراء يملأ النمش وجهها ، وتفرك يديها فى تأدب ، منتظرة إجابتها ..

قالت (عبير) بعد أن تنحنحت :

- لا شيء .. أعنى .. كنت أبحث عن راديو صغير و ..

كان كلامها بالإنجليزية كما قلنا .. وخرج من فمها سلسًا إلى حدّ غير متوقع .. ولم تكن تملك ما تطلبه سوى (الراديو) لأنها تعرف أن البائعة ستهزّ كتفيها أسفًا .. وتقول :

- (راديو) ؟ .. عفوًا .. ليس لدينا .. هل هو نوع من الشاى ؟

ابتسمت (عبير) فى إحراج :

- نعم .. نعم .. شاى هندى ممتاز .. لكن ...

- آه .. أرى .. لِمَ لا تجربين شاى (إيرل جراى) وارد مستعمراتنا ؟

- لِمَ لا .. ؟ .. أعطينى منه علبة ..

وتركتها البائعة لتحضر الشاى .. على حين دنت (عبير) من الرجل رثّ الثياب الذى كان يناقش البائعة .. وكان مستر (ستانفورد) الفظ قد تدخل فى المحادثة ، بينما الرجل يكرر :

- ثق بأن هذا هو الصواب .. إنها أصلية تمامًا ..

لكن مستر (ستانفورد) ظل مرتابًا :

- كيف لى أن أتأكد ؟

قال الرجل وهو يجفف عرقه :

- إذن لنعقد اتفاقًا .. ستعرضها أنت فى واجهة المحل ، وتعطينى بها إيصالاً دون أن تدفع بنسًا واحدًا .. وإذا جاءها مشتر يمكنك إعطائى نقودى بعد أخذ عمولتك ..

- ما رأيك يا (هيلين) ؟

قالها مستر (ستانفورد) سائلاً البائعة .. وقد بدا عليه التفكير .. لم يكن يطلب رأيها قدر ما يطلب مهلة لاتخاذ القرار ..

قالت الفتاة فى كياسة :

- إن كان هذا فلن نخسر شيئًا يا سيدى .. يمكننا قبول العرض .. نظر (ستانفورد) للرجل ، ثم عاد يتأمل اللفافة ..

- المشكلة هى أننى لا أفقه شيئًا فى التحف .. كيف أتأكد من أن هذه المروحة أصلية ، وأنها تخص الملكة (تى) شخصيًا ؟!

هرش الرجل رث الثياب عنقه وغمغم :

- إن لهذه الأشياء مشتريها .. ولسوف يعرفونها حين يرونها فى واجهة المحل .. وكما قلت لك ، أنت لا تطالب أحدًا بشىء .. من يريدها سيأخذها دون مشاكل ..

ـ إننى أجد نفسى مدفوعًا إلى قبول عرضك ..
ـ الشاى يا آنسة !

دوّت العبارة فى أذنى (عبير) فاستدارت لترى البائعة ، وقد جلبت لها ما أرادت .. شكرتها .. وذهبت إلى الصراف لتدفع ثمنه آسفة على أنها لم تستكمل المحادثة المثيرة للاهتمام ..

وخرجت من المحل لترى ذلك الرجل المتأنق أشيب الشعر ، يقف على جانب الطريق الآخر .. ورأت الرجل رث الثياب يلحق به ويتبادلان بضع كلمات ..

ومن نافذة المتجر رأت العاملة تضع المروحة الفرعونية المزعومة فى إهمال ..

وفى اللحظة التالية رأت شيئًا مثيرًا للاهتمام .. الرجل المتأنق يعبر الشارع إلى واجهة المحل ليرمق المروحة فى انبهار .. ثم يجتاز الباب إلى الداخل ...

كان هذا أقوى من تحملها .. فعبرت الشارع جريًا هى الأخرى ودخلت المحل فى اللحظة المناسبة ، بينما كان المتأنق يتجه نحو إحدى البائعات فى تؤدة .. وسمعت المدير يجيبه :

ـ نهار جميل يالورد (ثاكرى) ..

إذن هم يعرفونه .. ولكن لماذا ......؟ .. ولكن .. لتصغ لباقى المحادثة عليها تفهم ما يحدث ..

قال اللورد وهو يرفع عكازه فى وقار ويداعب شاربه :

- حفظ الله الملكة يا عزيزى مستر (ستانفورد) .. كنت مارًا من هنا ، فوجدت فى واجهة المحل ما بدا لى كمروحة أصلية تخصّ الملكة (تى) .. أنت تعرف ولعى بالآثار !

تبادل المدير والبائعة نظرة ذات معنى .. يالها من مصادفة ! .. ثم رسم على وجهه سيماء التاجر الحاذق وقال :

- الواقع أنك لم تخطئ الحدس يا سيدى اللورد .. لقد وصلتنا هذه المروحة مع أحد المستكشفين من (مصر) منذ أسبوع ، وحرصنا على أن يراها عملاؤنا مرهفو الذوق واسعو الثقافة ..

- كم ؟

هرش المدير صلعته فى شرود .. فهو لم يفكر قط فى تثمين هذا الشىء الذى رآه لأول مرة منذ ربع ساعة .. ثم قال :

- عشرة .. عشرة آلاف .. أو لنقل ....

- ماذا ؟ - هتف اللورد كأنما رأى لتوه تجديفًا خارقًا - عشرة آلاف ؟

- إذا كان السعر .....

سأدفع لك عشرين ألفًا حالاً .. أنت لا تحسن تقدير التحف الفرعونية إلى درجة إهانتها !

ورأته (عبير) يخرج شيكًا ليدون عليه الرقم ، ويعطيه للمدير ، ثم يتجه للبائعة التى ناولته المروحة .. ويخرج من الباب وسط الانحناءات والذهول ..

وعبر النافذة رأته يعبر الشارع إلى الرصيف الآخر .. ورأته يناول المروحة إلى الرجل الآخر رثّ الثياب الذى كان ينتظره !!

★ ★ ★

كان هذا فوق احتمالها ...

ما معنى هذا الذى حدث ؟ .. لابد أن له تفسيرًا ..

ولكن من يعينها على الفهم ؟!

★ ★ ★

سارت عبر الطرقات تتأمل العربات والناس ..

برغم أنها ـ كما قلنا ـ لم تكن تجيد الإنجليزية ؛ كان من السهل عليها الآن أن تطالع اللافتات وتسمع لغو القوم وتعرف أين هى بالضبط ..

لم تقلق بصدد أين تبيت ليلتها ؛ لأنها تثق بقدرة (دى ـ جى ـ ١) على الحكم .. ومن يدرى ؟ .. ربما كانت هذه هى مغامرتها المرتقبة .. أن تبحث عن مأوى ..!

ها هو ذا (بيكر ستريت) .. إن الاسم مـألوف لهـا .. مألوف أكثر من اللازم ، ولكن متى وأين ؟ ..

وهنا تذكرت ..

لقد قرأت هذا الاسم مرارًا فى أثناء مطالعتهم لروائـع (أرثر كونان دويل) .. فهذا هو الشـارع الـذى يقيم فيه ـ حسب القصة ـ أذكى مخبر بوليسى عرفه العـالم : (شيرلوك هولمز) ..

ولم تكن تعرف أن التـاريخ قد خلد هذا الشـارع ، وأنه ـ حتى فى دنيا الواقع ـ ما زال هناك من يأتون إلى هذا الشارع متوقعين أن يقابلوا هناك المخبر العبقرى ..!

★ ★ ★

هنـا يجدر بنـا أن نتوقف لحظـة لنقـول شـيئًا عـن (هولمز) ..

ابتكر السير (أرثر كونان دويل) هذه الشخصية عـام ١٨٩١ مستوحيًا شخصية أحد أسـاتذته فـى الجامعـة ، وبعد ما قرأ بضع قصص لـ (إدجار الآن بو) ..

وبرغم أن الشخصية أحدثت دويًا سـريعًا ثم خبـت .. إلا أنها سرعان ما عادت للحياة فى عام ١٩٠١ ، وصار الإقبال على قراءتها كاسحًا فى كل بقـاع العـالم ؛ بسـبب الشخصية الجذابة لهذا المخبر البريطانى الرصين ..

ولقد سيطرت هذه الشخصية على إنتاج الكاتب إلى حدّ أنه صار عاجزًا عن التخلص منها ، وقوبلت كتاباته الأخرى بفتور بالغ ..

بل إنهم ـ عام ١٩٥١ ـ أقاموا معرضًا خاصًا لـ (هولمز) فى انجلترا ، وكونوا جمعية لأصدقائه ، ودرست أجهزة التحقيق الجنائى فى كل أرجاء العالم أساليبه وطبقتها ..

لقد كان (هولمز) نموذجًا لعبقرية أديب استطاع أن يخلق عالمًا متكاملاً متشابكًا إلى حدّ أنه صار أسلوب حياة ..

★ ★ ★

سألت (عبير) أحد المارة عن دار مستر (هولمز) فأشار لها إلى باب موصد جواره مقبض مخصص للطرق ..

ها هى ذى تدق المقبض وتنتظر ..

ينفتح الباب عن رجل أميل للبدانة ضيق العينين يرتدى سترة من الصوف المنقوش بالمربعات ، وله شارب كثّ معتنى به ..

ـ معذرة سيدى .. كنت أبحث عن مستر (هولمز) ..

انحنى الرجل فى أدب ليعينها على الدخول ..

وفى هيبة دخلت .. إلى قاعة جلوس اشتعلت فى ركن منها نيران مدفأة ، كانت القاعة غير منسقة تنم عن إهمال شديد وقلة اكتراث بالنظام ..

دخان التبغ يملأ المكان - كأن حربًا دارت هنا - مما جعل التنفس عسيرًا ، وكانت هناك أوراق وملفات ملقاة فى كل مكان .. وثمة كمان ملقى على أريكة ..

وعلى الحائط رأت ثقوبًا .. ثقوب رصاص ، كأن أحدهم كان يتدرب على الرماية بالمسدس محاولاً أن يرسم حروفًا على الحائط ...

وعلى إحدى الأرائك رأته ممددًا وقدماه - اللتان دسهما فى خف صوفى - مستراحتان على مسند ..

كان هذا (شيرلوك هولمز) نفسه كما تخيلته مرارًا !

- ماذا هناك يا عزيزى (واطسون) ؟

- إن هذه الآنسة تعتقد أن لديها ما تقوله لك يا (هولمز) .. إذن فهذا هو د . (واطسون) صديق (هولمز) الصدوق الذى يحكى قصصه كلها ! .. إن هذا لا يوصف ! .. كما تخيلته تمامًا بادنًا ضخمًا محدود الذكاء لكنه نبيل ومخلص ...

قال (هولمز) وهو يعتدل فى جلسته :

- تفضلى بالجلوس أى آنستى .. (واطسون) .. لو كنت خارجًا الآن فلا تنس أن تمر على متجر (براد) وتوصيه بأن يرسل لى أجود ما عنده من تبغ ..

ثم نظف غليونه والتفت إليها ..

- بِمَ أستطيع أن أساعدك ؟

كان فى منتصف العمر .. وسيمًا مهيبًا .. يميل شعر رأسه إلى الشيب وقد بدأ يتساقط فى مقدمة جمجمته .. ، وكان أنفه محدبًا كصقر وذقنه الحليقة مُدبّبة توحى بقوة الشكيمة ..

وكان يرتدى روبًا منزليًّا قصيرًا من نوعية (الكاروهات) ..

كل شىء فيه كان يوحى بالهدوء والثقة ...

قال لها إذ وجد أنها تجد صعوبة فى الكلام :

- على رسلك يا آنسة .. لا تخفى عنى شيئًا .. أرى أنك لست إنجليزية .. ربما من شمال إفريقيا .. وأرى أنك قطعت مسافة طويلة إلى هنا ، وأنك رأيت ما يريب فى متجر (ستانفورد) منذ دقائق طويلة .. ويبدو لى أنك جئت (لندن) بالقطار منذ ساعة !

كانت تعرف أسلوب (هولمز) فى إبهار زواره جيدًا لكنها لم تستطع مقاومة الفضول .. كيف عرف ؟

قال (هولمز) إذ رأى حيرتها :

- هذا شيء أولى يا صغيرتى ..

أولاً : لا يبدو عليك أنك إنجليزية ، وملامحك أقرب إلى ملامح المصريين ..

ثانيًا : يبدو عليك الانهماك مما يجزم بأنك كنت على سفر ، خاصة والمطر كانٍ يهطل على (لندن) طيلة اليوم ، فلو كنت هنا لابتلّت ثيابك .. إلا فى الساعة الأخيرة حيث صار الجو صحوًا ..

ثالثًا : أنت تحملين لفافة عليها علامة متجر (ستانفورد) ..

رابعًا : واضح أنك رأيت ما يريب هناك وإلا لما جئت لى !

ابتسمت (عبير) وتأملت اللفافة فى يدها - لفافة الشاى - ثم قالت :

- أنت رائع حقًّا كما قالوا عنك يا مستر (هولمز) .. الواقع أن ما رأيته حدث فعلاً فى متجر (ستانفورد) منذ دقائق .. رأيت رجلين يسيران معًا .. أحدهما دخل المحل وترك لمديره مروحة فرعونية ثمينة ثم خرج .. بعدها بدقيقة دخل الرجل الثانى المحل وابتاعها بثمن باهظ .. ثم خرج ليعطيها للرجل الأول ! .. لا أجد أى تفسير لهذا الذى حدث ..

مال (هولمز) فى مقعده وقد بدا عليه الاهتمام :
تعنين أن المروحة كانت مع الرجلين منذ البداية ؟
- نعم .. كل ما فعلاه أنهما دفعا مبلغًا باهظًا للحصول على ما كان معهما بالفعل ..
- إن هذا يثير الشكوك حقًّا ..
وأفرغ غليونه فى مطفأة السجائر .. ثم أعاد حشوه وسألها :
- وهل عرفت أيًّا منهما ؟
- الثانى .. كان متأنقًا .. وسمعت مدير المحل يدعوه بلورد (ثاكرى) .
- لورد (ثاكرى) ؟.. غريب ..! ..! إننى أعرفه .. كيف يمكن أن يتورط فى شىء كهذا ؟
- أى شىء ؟
نظر لها فى رزانة .. وابتسم وقال بغموض :
- هذا هو ما سنحاول معرفته ...!

★ ★ ★



وابتسم وقال بغموض :

ـ هذا هو ما سنحاول معرفته ..!

٣ـ لورد (ثاكرى) ... !

قال (هولمز) وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه :

ـ إن لورد (ثاكرى) لمن الأشخاص المشهود لهم بالأمانة والشرف وعراقة النسب ، وهو بالفعل مهتم بالمصريات ، وقد عاش فى الهند فترة ، ثم ذهب إلى (مصر) حيث خلبت الحضارة الفرعونية لبه ، ولا أحسبه إلا رجلا شريفًا .

ثم نظر نحو د . (واطسون) الذى كان قد عاد من الخارج وسأله :

ـ أنت سمعت هذه القضية العجيبة يا د . (واطسون) ، وأحسبك قد كونت رأيًا فيها .. فهلا أسمعتنى رأيك ؟

قال د . (واطسون) وهو يشعل غليونه :

ـ حفظ الله الملكة يا عزيزى (هولمز) .. يخيل إلىّ أن هذه المروحة الفرعونية مسروقة .. وكان هذا هو السبيل الوحيد للحصول على فاتورة تدلّ على أنها بيعت فى محل محترم ..

فى توتر هتفت (عبير) وهى تستعيد ما رأته بالتفصيل :

ـ لكنه لم يأخذ فاتورة بها يا د . (واطسون) .. أنا واثقة من هذا .. لقد كتب شيكًا للمحل بالثمن وحمل المروحة وذهب ..

أضاف (هولمز) فى تؤدة :

- ثم إن أحدًا لا يدفع عشرين ألف جنيه من أجل هذا يا (واطسون) .. إن لتصريف البضائع المسروقة أساليب أكثر سهولة وأقل تكلفة .. كلا .. لابد من حلّ آخر ..

ثم إنه نظر نحو (عبير) :

- أحسب أنك لا تجدين مكانًا تمضين فيه أمسيتك يا آنسة .. إن (واطسون) لكفيل بأن يجد لك فندقًا محترمًا .. أما أنا فسأدخن بضعة غلايين من التبغ الممتاز ، وأفكر فى هذه القضية المستعصية .. ولسوف أزورك كى أبلغك بما يستجد ..

- ليكن ...

★ ★ ★

وهكذا ...

وجدت (عبير) نفسها تمضى ليلتها فى غرفة فندق من الطراز الفكتورى ، تحيط بها ستائر الدانتيلا ، وقطع الأثاث المبطنة بالمخمل الأحمر ، والمدفأة المشتعلة باستمرار يعلوها شمعدان عتيق ..

ولم تملك إلا أن تتمنى لو كان هناك جهاز (تليفزيون) من الطراز الفيكتورى لتتسلّى بهّ ! ، فلا يوجد الآن فى

حوزتها سوى الصحف ورواية عملاقة من روايات (ديكنز) وجدتها هناك .. لقد كان (ديكنز) هو (تليفزيون) ذلك العصر حقًا ..

وبينما هى جالسة تتأمل غرفتها ، دق الباب ودق معه قلبها .. هرعت إلى هناك تتساءل عن الطارق .. فسمعت الصوت الهادئ المحبب لـ (هولمز) يطلب منها أن تفتح ..

طبعًا لم يكن من ديدنها أن تستقبل الرجال فى حجرتها .. لكن هذا كله كان خيالاً محضًا .. وهى لا تملك إلا أن تندهش ، كلما تذكرت أن كل هذا الأثاث والعالم المتشابك ، ليس سوى حلم تحلمه ..

وفتحت الباب لـ (هولمز) ورفيقه (واطسون) ..

كانا منهكين .. وعيناهما بلون الدم من فرط إرهاق ..

قال لها (هولمز) وهو يريح قامته الفارعة على أريكة :

ـ اليوم ذهبنا إلى متجر (ستانفورد) ـ وهو بالصدفة متجرى الأثير ـ فعرفنا من مديره أن الشيك الذى كتبه لورد (ثاكرى) صحيح تمامًا ولا غبار عليه ، وقد قام المتجر بتحصيله فورًا من البنك ..

أضاف د . (واطسون) وهو يخلع قبعته :

ـ وقد عاد الرجل رثّ الثياب إلى المتجر وحصل على ثمن المروحة ، وهو عشرة آلاف جنيه .. طبعًا زعم

مستر (ستانفورد) أنه لم يحصل على اثنى عشر ألفا ..

- إن ذلك العجوز (ستانفورد) تاجر بارع .. وهو قادر على انتزاع الذهب من بين أسنان الموتى ..

ونهض (هولمز) يذرع الغرفة فى تؤدة ..

كان يرتدى تلك الثياب التى اشتهر بها .. البيريه الغريب الشبيه بالكاسكيت .. والعباءة التى يغطى بها كتفيه دون أن يخرج ذراعيه منها .. والغليون المصنوع من خشب ثمين بمبسمه الذى صيغ من (الكهرمان) ..

قال لـ (عبير) وهو يتأمل لهب المدفأة :

- ثمة خبر صغير ينبغى أن تعرفيه ..

- وما هو ؟

- ذهبنا - أنا و (واطسون) - إلى منزل اللورد (ثاكرى) كى نسأله عن سرّ هذه الصفقة المريبة .. لم نكن نبغى سوى أن نجعله يتعثر فى القول ، إلا أننا وجدناه قد مات !

★ ★ ★

وهكذا اكتملت قطع اللغز فى خلال عشر ساعات ..

مروحة فرعونية .. صفقة غامضة .. موت .. كل القطع موجودة لا ينقصها سوى عقل بارع يقوم بتنسيقها فى شكل صورة مفهومة ..

ولم ينم (هولمز) هذه الليلة ..

قضى الليل كله فى حجرته يدخن الغليون ، ويتأمل نيران المدفأة ، ويعيد ترتيب أحداث هذه القضية الغامضة ..

كذلك (عبير) لم تنم ليلتها ..

ظلت ساهرة فى حجرتها تسترجع كلمات (هولمز) عن موت اللورد :

ـ ذهبت مع (واطسون) إلى منزل اللورد كى نحاول استجوابه ، لكننا وجدنا الباب مفتوحًا ولم يكن هناك خدم كى يستقبلونا ..

وما إن دخلنا حتى وجدنا إدارة (سكوتلانديارد) كلها هناك ..

لقد وجد رئيس الخدم سيده ميتًا فى مكتبه الذى كان قد دخله عصر اليوم . حاول أن يسعفه ، لكن اللورد كان ميتًا .. ميتًا جدًا إذا صح التعبير ، وأكّد أن أحدًا لم يدخل الدار أو يصعد إلى سيده منذ دخل مكتبه طالبًا عدم المقاطعة .

لم تكن هناك آثار عنف أو سرقة .. كل ما هنالك هو أن اللورد كان جالسًا على مكتبه ، وقد ارتسمت فى عينيه نظرة مثيرة للهلع ، وإلى جواره قارورة صغيرة تحوى سمًا زعافًا يبدو أنه ابتلعها بالكامل .. وكان هناك خطاب

انتحار صغير على المكتب يقول : اغفروا لى .. هذا هو المهرب الوحيد من اللعنة التى تطاردنى . وإلى جوار هذه الورقة المختصرة ، وجدنا المروحة الفرعونية إياها .. وإلى جانبها واحد من قواميس اللغة الهيروغليفية ، مما يرجح أنه كان عاكفًا على فك رموز النقوش التى امتلأت بها .. ، وإننى لأسائل نفسى عن السبب الذى يجعل المنتحرين غير ميالين للثرثرة .. لو أننى نويت الانتحار لكتبت لمن سيجدون جثتى كراسة كاملة تحوى أسباب انتحارى وخواطرى وآرائى فى الحياة ، فأنا لا أريد منهم أن يشقوا بأسئلة لا إجابة لها ..

تذكرتُ كذلك ما قاله (هولمز) :

- السؤال الأهم هو لماذا انتحر اللورد ؟ .. إن الإجابة عليه هى مفتاح القضية كلها .. السؤال التالى فى الأهمية ، هو ما المكتوب على المروحة ويدفع رجلاً شجاعًا للانتحار ؟.. السؤال الأخير هو ، أين ذهب الرجل رثَّ الثياب ؟

ثم إنه قال لها وهو يرتدى البيريه المميز له ..

- إنها لقضية معقدة .. أعتقد - وأرجو ألا أكون مخطئًا - إنها تحتاج عقلاً ناضجًا إضافيًا ..

ثم نظر نحو (واطسون) وقال بلهجة الطلب :

- إن (هيركيول بوارو) سيكون خير عون لى !!

فغرت (عبير) فاها فى بلاهة .. (هيركيول بـوارو) ؟.. لكن كيف ؟.. هو و (هولمز) و ....

- هل تعنى (هيركيول بوارو) المخبر البلجيكى ؟

- حتمًا !

- لكنه فى (لندن) المعاصرة .. أعنـى .. أنـه سيجىء العالم بعد ما لا يقل عن خمسين عامًا !

- هل نسيت أننا فى (فانتازيا) ؟ .. لا وجود لقيود الزمان والمكـان يا آنسـة .. لـو أن هنـاك عقليـة تفوق عقلية (بوارو) فى عصر الرومان لجئت بها معى !

ثم أشعل غليونه وقال :

- إن هذا البلجيكى جيد حقًا وموهوب .. ولولا محاولته المضحكة للتظاهر بأنه يجيد الإنجليزية ، لقلت إننى أميل إليه .. هل سبق لك أن رأيته ؟

- نـ .. نعم فـ .. فى ....

وأمسكت ...

كـانت تريد القول إنها رأتـه فى خيالهـا مـرارًا .. المخبر البلجيكى الأصلع الميال إلى البدانة ، والذى يعنى بأناقة شاربه وبذلته إلى حدّ مبالغ فيه ؛ ذلك المخبر الذى اختار (انجلترا) ليعمل فيها مع صديقه المخلص محدود الذكاء - هو الآخر - كابتن (هاستنجز) ..

لقد ولد (بوارو) من عقل كاتبة قصص بوليسية موهوبة ، هى (أجاثا كرستى) .. واكتسب حيوية فائقة قاربت جاذبية (هولمز) بل كادت تفوقها ...، ولقد كتبت (أجاثا كرستى) عن شخصيتين أخريين ، هما (مس ماربل) ، و (باركر باين) لكنهما لم تستطيعا أن تصلا إلى سحر ومغناطيسية (هيركيول بوارو) العجوز ..

كانت (عبير) - منذ أعوام طوال - قد قرأت قصة مترجمة يلعب بطولتها (أرسين لوبين) و (بوارو) و (مس ماربل) .. وقد شعرت وقتها بالعجب من أن يتزامن هؤلاء ويتواجدوا بين دفتى كتاب واحد ، ثم فطنت إلى أن هذا استهتار ذميم من المترجم ، الذى يترجم أية رواية ، ويبدل أسماء أبطالها كما يشاء ؛ ليجذب إليه القراء الذين يبحثون عن أحد هذه الأسماء الشهيرة ....

الآن ها هى ذى ترى من جديد هذا التزامن العجيب ، بين شخصيات متباعدة فى الزمان والمكان .. لكنها اليوم تصدق كل هذا .. وتؤمن به .. وتحبه ...

وهى ذى تنتظر فى حجرتها ، عالمة أن البرقية التى أرسلها (واطسون) ستصل إلى (بوارو) فى الصباح ...

★ ★ ★

فى الصباح ذهبت إلى دار (هولمز) فى (بيكرستريت) فوجدته منهمكا فى التدريب على الملاكمة ..

ولم يثر هذا دهشتها ؛ لأنها تعرف أن (هولمز) - برغم قلة اهتمامه بالرياضة - ملاكم ممتاز ..

فما إن انتهى حتى جلس على الأريكة يجفف وجهه بالمنشفة ، ثم تناول الكمان الصغير وشرع يعزف عليه ..

الملاكمة والموسيقا !.. هوايتا (هولمز) الوحيدتان ، بالإضافة إلى تدخين الغليون وحلّ القضايا الغامضة ..

بعد ساعة من الصمت الذى لا يقطعه سوى صوت أوتار الكمان ، دق الباب فنهض (واطسون) ليفتحه ...

لقد بلغت الهلوسة أقصى مداها الآن ...

فمن الباب يدخل ذلك الرجل البدين الأصلع الذى يرتدى بذلة عصرية تعود إلى خمسينات القرن العشرين ، ومعه شاب رياضى البنيان لا تكف عيناه عن الحركة ..

قال البدين وهو يداعب شاربه بأنامله ويصلح رباط عنقه :

- تحية يا عزيزى (هولمز) .. جئت و (هاستنجز) بمجرد أن وصلتنى برقيتك .. أرى أنك لم تزل تؤدى ما يفترض منك أن تؤديه ! نهض (هولمز) فى رصانة وصافح الرجل ..

- نهارك سعيد يا مستر (بوارو) .. إن الغموض المخيم على هذه القضية ليحتاج إلى عقلين حادّى الذكاء ..

ظلت (عبير) ترمق المشهد فى انبهار .. إنه اللقاء - مستحيل الحدوث - بين قطبين من أقطاب الرواية البوليسية الإنجليزية : (شيرلوك هولمز) و (هيركيول بوارو) ..

وللمرة الأولى ، لاحظت التشابه الشديد بين الاثنين فى الطباع .. والتشابه الأشد بين مرافقيهما .. إن (واطسون) هو (هاستنجز) آخر .. كلاهما محدود الذكاء مخلص كالكلاب معدوم النفع والضرر .. لكن كليهما يتكفل بدور الراوى لحكايات صديقه ...

قال (هولمز) لضيفه :

- لم نسمع عنك مؤخرًا ..

- كنت مشغولاً مع قاتل الحروف الأبجدية ، الذى لا يقتل إلا حسب الترتيب الأبجدى .. ويقتل فى كل مدينة شخصًا يشترك معها فى الحرف الأول من الاسم .. كانت قضية معقدة ، وكلفتنى إجهاد خلايا مخى الرمادية ..

قال (هولمز) وقد أحس أن ضيفه يستعرض عضلاته :

- أما أنا فعائد من (ديفون شاير) ، حيث كنت أحقق فى قضية كلب عائلة (باسكرفيل) .. لقد كدت ألقى حتفى فى هذه القصة ، ولا أدرى إن كنت تعلم تفاصيلها ..

ـ أعرفها .. أعرفها يا سيدى .. وأعتقد أن للحظ دورًا كبيرًا فيها .. ولكن .. أرى أنك لم تتحل بالنظام بعد .. ما زلت مهملاً قليل الترتيب .. وأنت تعرف ولعى بالنظام والأشكال الهندسية .. حتى أننى أتمنى أحيانًا لو وُجدت بيضًا مكعبًا !

ـ سأفترض يا مستر (بوارو) أن ضعف لغتك الإنجليزية ، هو سبب ما يخيل لى أننى أسمعه من انتقادات مهينة للغاية ..

وهنا أدرك (واطسون) أن الرجلين سيتشاجران ما لم يتدخل هو فى كياسة ليهدئ النفوس ..

صاح بصوت جهورى :

ـ أرى أيها السيدان أن ندخر جهودنا لحلّ القضية التى نحن بصددها ..

صمت الرجلان وقد أدركا أنه محق فى هذا على الأقل ..

★ ★ ★

كان عرض (واطسون) للقضية جيدًا ، وتدخلت (عبير) فى بعض المواضع لتضيف بعض الأفكار أو التفاصيل .. وبرغم أن (بوارو) لم يبد اهتمامًا كبيرًا بها ، فإنها كانت تؤمن بحقها فى التدخل .. أليس كل

هؤلاء يعيشون فى خيالها ؟.. حتى الثياب التى يرتدونها هى التى ألبستهم إياها ! .. كأنها صاحبة مسرح يطالبها الممثلون بعدم التدخل فى أدائهم .. فكيف تقبل ؟! ..

بعد انتهاء القصة ساد الصمت هنيهة ..

ثم إن (بوارو) تساءل فى تؤدة :

- والسمّ الذى جرعه هذا اللورد .. ماذا كان نوعه ؟

قال (هولمز) وهو يدسّ يده فى جيبه :

- لا أدرى فالطب الشرعى لم يخترع بعد .. لكنى حصلت على الزجاجة من مفتش (سكوتلانديارد)

- وتمسكها هكذا ؟ .. والبصمات ؟

- تنسى أننا لا نفحص البصمات فى هذا الزمن ولا ندرى شيئًا عنها ..

تناول (بوارو) القنينة وتشممها هنيهة ثم غمغم :

- رائحة اللوز المرّ .. إنه سيانور .. كيف كان منظر الجثة حين رأيتموها ؟

قال د . (واطسون) وهو يشعل غليونه :

- كانت عيناها مفتوحتين يا مستر (بوارو) .. وكانت الحدقتان متسعتين تمامًا ..

- هذه هى علامات التسمم (بالأتروبين) يا عزيزى (هاستنجز) .. فالسيانور لا يوسع حدقة العين .. وهذا

يعنى أن اللورد قد توفى بسم غير الذى وجدناه جواره .. والأمر بصورته الحالية يشير إلى جريمة قتل !

نهض (هولمز) ، وذرع الغرفة جيئة وذهابًا .. كان يشعر بالغيظ لأن مؤلف قصصه ـ (أرثر كونان دويل) ـ لم يكن ذا خبرة بالسموم مثل مؤلفة (بوارو) (أجاثا كرستى) ، التى عملت فترة طويلة كمشرفة على قسم السموم بالمستشفى فى أثناء الحرب العالمية الأولى ..

قال (هولمز) :

ـ « إن هذا شىء أولى يا عزيزى (واطسون) .. هناك من جعل اللورد (ثاكرى) يجرع (الأتروبين) ، ثم بادر بإخفاء القنينة ، ووضع ورقة الاعتراف هذه .. ولماذا يدل نوع السمّ ؟ .. لأنه يشير بوضوح إلى شخص القاتل .. إن (الأتروبين) يستعمل لعلاج المغص .. وأعتقد أن أقدر الناس على إعطائه للورد هو طبيبه الخاص .. فإذا تصورنا لحظة أنه قام بتركيب جرعة زائدة ، تناولها اللورد بسلامة نية ؛ فإن من واجب هذا الطبيب أن يدارى قنينة السمّ التى تشير إليه ، ويضع بدلاً منها قنينة أخرى فارغة تفوح منها رائحة اللوز المرّ ..

تساءل (واطسون) :

ـ ولكن كيف ومتى دخل الطبيب غرفة المكتب ؟ .. وكيف أرغم اللورد على كتابة هذه الرسالة المزعومة ؟

داعب (بوارو) شاربه فى ثقة وقال :

ـ إن الأمر يشير إلى رئيس الخدم .. فهو القادر على تبديل القارورتين ، وقادر على دسّ السم للورد فى دوائه ، وقادر على ترك هذه الرسالة .. وقادر على الكذب علينا ..

ثم نهض وأصلح ربطة عنقه :

ـ أرى أن نذهب إلى مسرح الأحداث .. ولسوف نرى هناك ما ينعش خلايا مخنا الرمادية أكثر ..



٤ ـ الحقائق تتضح ... !

هتف (هولمز) فى سائق العربة وهو يحكم غلق أزرار معطفه :

ـ هلم يا صاحبى إلى (ريجنت ستريت) .. ولئن أوصلتنا هناك سريعًا فلسوف أمنحك جنيهًا كاملًا ..

وأخرج ساعته من جيب صدريته وشرع يتأمل عقاربها ...

★ ★ ★

فتح رئيس الخدم فى منزل لورد (ثاكرى) الباب لهذه المجموعة الغريبة من الناس : (هولمز) و (واطسون) و (عبير) ..

وكان يعرف الأولين ، لهذا سمح لهم جميعًا بالدخول ..

نظر (هولمز) إلى الرجل .. المتهم رقم واحد فى الوقت الحالى .. فوجده رجلًا نحيلًا مهذبًا شاحب الوجه راقى اللغة ..

سأله وهو ينزع معطفه عن كتفيه :

ـ من يدفع لكم أجوركم الآن ؟

ـ محامى اللورد (ثاكيرى) حريص على ألا يتغير شىء وإلى أن يصل وريث اللورد الوحيد من (أمريكا) .. لهذا يدفع لنا أجورنا بانتظام ..

مال (هولمز) على أذن (بوارو) وهمس :

ـ أسمعت ؟ .. هناك وريث اللورد (ثاكيرى) .. إن تقاليد قصصى الفكتورية تحتم أن يكون القاتل هو الوريث !

ـ أما أنا فتقاليد قصصى تحتم أن يكون القاتل هو رئيس الخدم !

ـ الوريث !

ـ رئيس الخدم !

رفع رئيس الخدم حاجبيه فى تهذيب :

ـ هل يطلب السادة شيئًا معينًا ؟

ـ نعم .. أ .. نريد أن نرى غرفة مكتب اللورد ثانية ..

ـ هذا مطلب غير معتاد .. لكنى أعرف أننى أستطيع الثقة فى مستر (هولمز) خاصة ، ورجال (سكوتلانديارد) يثقون به ..

وتقدمهم صاعدًا فى الدرج إلى الغرفة المذكورة ..

وعلى الباب وقف ينتظرهم فى أدب حتى يفرغوا ..

كان (بوارو) أول من دخل ، فانحنى يتفحص المكتب الذى كانت أدراجه موصدة بطبيعة الحال .. ثم إنه ركع على ركبتيه يتفحص الأرض ، حيث كان طرف السجادة ينتهى تحت أرجل المكتب ..

هبط (هولمز) إلى جواره ليرى ما يثير شغفه ..



كان (بوارو) قد وجد وريقة ممزقة ملقاة فى إهمال هناك .. نظر لها
ثم ناولها لـ (هولمز) وهو ينظر له ..

كان (بوارو) قد وجد وريقة ممزقة ملقاة فى إهمال هناك .. نظر لها ثم ناولها لـ (هولمز) وهو ينظر له نظرة معناها : أترى ؟

كانت الوريقة خطابًا يحمل توقيع اللورد فى أعلاه ، والخطاب موجه لبعض شركائه الماليين ، يقول الخطاب فى آخر فقرة منه :

« .. ولهذا ـ ونظرًا لضيق حالتى المالية ـ أجد نفسى مضطرًا لبيع كل أسهمى فى شركة (سميث أند وارين) .. أرجو أن ..... » .

وينتهى الكلام هنا ؛ لأن باقى الصفحة كان ممزقًا بأناقة ، كأن هناك من تعمد تمزيق الجزء الباقى ليترك الكلام مبتورًا ..

قال (هولمز) وهو يبتسم :

ـ إن تكملة الكلام معروفة لكلينا ..

ـ (اغفروا لى .. هذا هو المهرب الوحيد من اللعنة التى تطاردنى) ! .. لقد اقتطعَ القاتل هذا الجزء الموحى وتركه أمام اللورد ليقنعنا بانتحاره .. وبخط يده !

وهنا جثت (عبير) على ركبتيها جوار الرجلين .. وأدنت فمها من أذن (هولمز) لتهمس له :

ـ هذا الخادم .. إنه هو ....

ـ هو من ؟

ـ هو الرجل رثّ الثياب الذى كان مع لورد (ثاكرى) فى ذاك المحل .. الرجل الذى عرض المروحة للبيع ..!

ـ إن القضية تتضح أكثر ..

ثم إن (هولمز) نهض على قدميه ، وضمّ أطراف معطفه على جسده ، وقال لرئيس الخدم :

ـ قل لى يا صديقى .. هل سبق لك أن ذهبت إلى متجر (ستانفورد) ؟

فتح الرجل فاه ليتكلم ، لكن (هولمز) قاطعه فى كبرياء ..

ـ قبل أن تكذب ، عليك أن تعلم أن هذه الآنسة رأتك هناك ، وهى مستعدة لأن تقسم على ذلك .. وحتى لا تخونك الذاكرة أقول لك إن الأمر كان يتعلق بأثر فرعونى له أهمية خاصة ..

ودنا أكثر من الرجل الذى امتقع وجهه .. وأردف :

ـ إن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نربط بين عملية البيع والشراء المريبة هذه ، وبين مصرع اللورد الذى نستطيع أن نؤكد أنه ليس انتحارًا ..

نهض (بوارو) من على ركبتيه ، وقد احتقن وجهه حنقًا .. ومن أثر الانحناء ، هو الذى لم يعتد ذلك قط .. وصاح :

- يا لهذا الإنجليزى المتحذلق ..! .. لماذا تتعجل مواجهته بما نعلم ؟ كان ينبغى أن تنتظر أكثر ، حتى نضيق الخناق عليه تمامًا !

قال (هولمز) فى كبرياء :

- هذا هو أسلوبى إن لم يرق لك ..

- إنك تتبع أساليب عتيقة عفا عليها الدهر ..

كان رئيس الخدم يتراجع للوراء أكثر .. لكنه اصطدم بـ (هاستنجز) الذى لم يكن ضعيفًا فى الواقع .. فقال فى ضيق وهو يعود لمكانه :

- ليكن .. أنتم تعرفون كل شىء إذن .. فى الواقع إن المروحة كانت مسروقة .. اللورد نفسه سرقها حين كان فى (مصر) .. ولما كان العجوز يقدس الشرف فإنه شعر بأنه لن يكفر عن خطيئته ما لم يشتر هذه التحفة المسروقة ، ويدفع فيها مالاً .. لقد كانت له نزوات غريبة ، وأجبرنى على تركها فى متجر (ستانفورد) ، ثم دخل هو المتجر قبل أن يشتريها واحد آخر ، واشتراها هو ....

تبادل (هولمز) و (بوارو) النظرات .. ثم نظر الأول إلى (عبير) :

- لقد كان تصرفًا شريفًا ، لكن أحدًا لم يستفد به ..

ربما لو كان تبرع بهذا المبلغ للفقراء بدلاً من (ستانفورد) فاحش الثراء ، لكان هذا أدنى للعقل ...

قال (بوارو) وهو يمشط شاربه :

ـ من الواضح أنه كان بحاجة إلى عملية بيع وشراء .. وأجرؤ على القول إنه لهذا السبب بالذات باع أسهمه فى شركة (سميث أندوران) كى يوفر بعض السيولة لهذا التكفير ..

هنا هتف (واطسون) وهو يجلس على أحد المقاعد :

لكننا لم نفسر بعد لماذا قتل ..؟

مشى (بوارو) ذارعًا الغرفة والمشط فى يده .. وقال :

ـ دعنا نخمن .. ربما قتله رئيس الخدم من أجل السرقة .. فهو يعرف أن لديه مبلغًا كبيرًا من المال ، كما أنه لن يكون مضطرًا وقتها لرد المبلغ الذى حصل عليه من متجر (ستانفورد) ..

أضاف (هولمز) وهو يشعل غليونه :

ـ وربما كان رئيس الخدم هو من سرق المروحة للورد .. وخشى أن تدفع صحوة الضمير هذا الأخير إلى الإبلاغ عنه ، فقتله ..

قال (بوارو) فى شرود :

- ولربما أراد الحصول على المروحة لنفسه ، فقتل اللورد ثم وضع مكانها مروحة زائفة ..

والتقت خمسة أزواج من العيون المتشككة على وجه رئيس الخدم الممتقع .. وقد بدأ العرق البارد يسيل على جبينه .. وسأله (هولمز) :

- والآن ماذا تقول يا سيدى ؟

قال رئيس الخدم وهو يبتلع ريقه :

- الأمر أبسط من هذا يا سادة .. الحقيقة هى أن ....

....

مرحبًا بعودتك يا (عبير) !!

★ ★ ★

٥ ـ العـــودة ...

دعونا الآن نرجع بضع صفحات إلى الوراء ..

كما قلنا آنفًا ، كان العلماء فى (نيوجيرسى) عاكفين على دراسة الصور المتلاحقة المنبعثة من ذهن الفتاة ..

ثم خطر لأحدهم أن يدرس الفقرات التى تنقطع فيها النبضات عن الوصول إلى الشاشـة ، هذه الفترات لابد أن تكون موازية للفترات التى يستقبل فيها عقل الفتـاة كل شىء ، ولا يرسل شيئًا ..

فلو أنهم أغلقوا جهاز (الكمبيوتر) فى إحدى هذه الفترات ، تكون الفرصة لا بأس بها فى أن تصحو الفتاة سالمة ..

إنها لمخاطرة .. خاصة وأن الفترة لا تزيد على واحد من ستين جزءًا من الثانية ، لكن الأمر يستحق المحاولة ..

★ ★ ★

وهكذا قاموا بتطوير (كمبيوتر) ثالث ، مهمته إيجـاد التزامن الدقيق ، القـادر علـى قطـع الدائـرة فـى اللحظـة المختارة ..

وحول جثمان الفتـاة وقفـوا يتبـادلون النظـرات .. ثـم هتف (شريف) وهو يحبس أنفاسه :

- الآن !

وفى الحال بدأ (الكمبيوتر) يعمل ..

كان يبحث عن نقطة الالتحام الضعيفة بين حلقات السلسلة ..

ووجدها بعد ثوان ....

وعلى الفور اختفت الصورة من على شاشتى (الكمبيوتر) الأول والثانى ..

وقبل أن يقتلهم القلق سمعوا الفتاة تسعل بصوت مسموع ..

★ ★ ★

- مرحبًا بعودتك يا (عبير) !

قالها (شريف) والانفعال يعصف به ، وهو يحاول ألا يبكى أو يرتجف .. فى حياته لم ير لحظة أجمل من هذه ..

لقد فتحت عينيها أخيرًا ! ..

النظرة الزائغة الخاوية لما حولها .. العينان الحمراوان .. شفتاها ملتصقتان بفعل اللعاب الجاف .. ثم ...

- أين أنا ؟

- أنت بين أصدقاء محبين ! .. لقد عدت من عالم الوهم !

هنا كان ردّ فعلها خارقًا للعادة ..

لقد هبت من الفراش كثور برى هائج .. وفى جنون صاحت :

ـ لماذا أيها الحمقى .. لماذا ؟

تبادلوا النظرات محاولين فهم ما تعنيه ..

ـ لقد كنت على وشك معرفة سبب قتل اللورد (ثاكرى) !

ثم أمسكت بقميص (شريف) واعتصرته بين يديها :

ـ كان معى (هولمز) و (هركيول بوارو) .. هل تفهم هذا يا أحمق ؟ .. لقد كنت أعيش أجمل لحظات عمرى .. هل تفهم ؟

بالطبع لم يفهم .. لكنه هزّ رأسه متظاهرًا بالإدراك العميق ..

وفى ذهنه تردد السؤال : هل جنت البائسة أخيرًا ؟

★ ★ ★

كانت قد نسيت الكثير من التفاصيل ..

لكنها إذا جلست مع (شريف) تشاهد شرائط (الفيديو) التى تم التقاطها لأحلامها ـ بدأت تسترجع مشاهد عديدة .. ثم تسترجع كل شىء ..

ـ (شريف) ـ سألته وقد وجدت ألا داعى للألقاب بعد تجربتها العجيبة ـ كم من الوقت ظللت فى غيبوبة ؟

- أربعة أسابيع وثلاثة أيام ..

- لا أفهم .. إذن أنا ظللت أحلم طيلة هذه الفترة ، وبرغم هذا لم أعش فى الحلم سوى ثلاثة أيام ؟

قال وهو يحكّ ذقنه فى شرود :

- قلت لك ألا وجود للزمن فى العقل الباطن .. الإحساس . بالزمن ذاته خاضع لتقديرنا الشخصى ..

- لكنكم لم تسجلوا سوى عشرة شرائط برغم ما قلته عن سرعة تلاحق الصور على الشاشة .. كان من المفترض أن تسجلوا ألف شريط إذن .. أين ذهب كل هذا ؟

- قلت لك إن عقلك كان يرسل الكثير من الركام (جاربيدج) ، وكان علينا أن نلخص ما ترين ليمكن فهمه ..

لم تفهم .. لكنها لن تحاول أكثر .. كفاها الآن أن تراقب الصور على شاشة (التليفزيون) .. ها هى ذى صورة المرشد يكلمها .. صورة قطار (فانتازيا) .. (طرزان) يقفز بين الأشجار .. صور رديئة مشوشة ، لكنها - بالنسبة لها - مفهومة واضحة .. (جيمس بوند) يبيد مهاجميه .. (لندن) .. متجر (ستانفورد) ..

- لم أر نفسى فى أية صورة ..

هذا طبيعى .. كنت تعيشين الأحداث من وجهـة نظرك ، فلم يكن من الممكن أن ترى نفسك (من الخارج) أبدًا ..

(شيرلوك هولمز) جالسًا على الأريكـة يدخـن الغليون .. غرفـة الفنـدق .. د . (واطسـون) يصـل إلـى المكـان .. (بوارو) و (هاستنجز) .. رئيس الخدم يفتح البـاب .. البحث تحت المكتب ..

كانت تسمع الحوار بالإنجليزية .. حتى صوتها هى كـان واضحًا ، لكن كـان مـن المستحيل عليهـا الآن أن تفهم حرفًا ممـا يقـال .. وحتـى (شريف) قـال لهـا إن الحوار (يبدو) بالإنجليزية لكنه لا يفهم مقاطعه ..

لقد عاشت فى حلم .. لكنها قادرة على استعادته كلمـا أرادت ..

★ ★ ★

ـ (شريف) .. أعدنى إلى (فانتازيا) !

قالتها له بينما الطائرة تهدر محركاتها إيذانًا بالإقلاع ، فمال عليها كـى يسمع أكثر وناولهـا قطعـة مـن اللبـان لتلوكها ، وقذف فى فمه بقطعة أخرى :

ـ معذرة .. إن طنين أذنى ....

ـ قلت لك أعدنى إلى (فانتازيا) !

ـ مستحيل يا (عبير) .. لقد كدت تموتين .. ألا تفهمين ذلك ؟

ـ نعم لا أفهمه .. أنا بخير الآن .. وأنت قادر على إصلاح هذا البرنامج ، ومنع ذلك الخلل من أن يتكرر .. إننى أحببت هذا العالم يا (شريف) .. وجدت كل ما افتقدته فى حياتى هناك .. ولم يزل ذلك الكون مفعمًا بالفرص والاكتشافات .. تخيل أننى لم أر سوى واحد على الألف من هذا البلد الغامض ! صدقنى لن تكون لحياتى جدوى ثانية واحدة ، طالما أنا بعيدة عن أرض أحلامى .. لقد كنت أبكى بحرقة فى طفولتى ؛ لأننى أرغب فى دخول مجلات (ديزنى) لألهو مع (ميكى ماوس) و (دونالد داك) .. ، واليوم أنت ذا تقدم لى هذه الفرصة وتحاول حرمانى منها ..

ـ عزيزتى .. إن ....

ـ ستوافق يا (شريف) .. أنت لم تتعلم القسوة بعد ..

تنهد فى استسلام .. وغمغم وهو يرمق السحب خارج النافذة :

ـ أعدك أن أفكر فى الأمر ..!

★ ★ ★

إن (عبير) تعرف ـ كما نعرف نحن ـ أن (شريف) سيوافق .. لسوف يصلح البرنامج ، ويأخذها فى رحلة

أخرى إلى (فانتازيا) .. وكما قلنا آنفًا لم تكن (عبير) جميلة ولا مثقفة ولا قوية .. لكنها تملك القدرة على الحلم .. ولأنها تملك هذه القدرة ، غدا الكون كله طوعًا لها .. وصارت بطلة حقيقية من أبطال الروايات التى تقرؤها طيلة الوقت ..

ستكون لـ (عبير) جولات وجولات ..

ولسوف نضيف نحن المزيد من الحكايات المسلية إلى رفوف مكتباتنا ، أو فوق جهاز (التليفزيون) إذا كنتم ممن يضعون الكتب هناك !

★ ★ ★

فى المرة القادمة نذهب مع (عبير) إلى (والاشيا) ، حيث يجوّل الكونت غريب الأطوار المسمى (فلاد الوالاشى) .. والذى نعرفه نحن باسم ... (دراكيولا) ...



فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيـــال

روايات
مصرية للجيب

قصة لاتنتهى

الفرار ! .. الفرار ! .. الفرار من معالم شارعك .. من رائحة الأوراق على مكتبك .. الفرار من أصحاب الوجوه التى لا تتغير .. الفرار من ذكرياتك .. من همومك .. من كل من كانوا لك أعداء ، ومن كل من كنت لهم عدواً .. الفرار إلى عوالم الحلم .. إلى مدينة لم ولن توجد إلا فى مخيلة الحالمين مثلى ومثلك .. الفرار ! .. الفرار ! ..



د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى مصر ١٢٥ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٥٩٠٨٤٥٥